

الوصف

N. O

808.1 : D12a A.

فنون الادب العربي

الوصف

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
MAR 7 '70	9 64-1476		
23. 2. 73	F298J		
	73-2159		
4 DEC '90	SSS 8		

808.1
D12a A

DATE DUE

JAFET LIB.
15 FEB 1991

808.1
D129A
فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٣

الوصف

يشارك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

تمهيد

منذ قامت العبقرية في الدنيا سعى الفنان إلى الطبيعة في حب وإعجاب ونشوة وذهول ، فسكّر بجمالها ، وانتشى بمحاسنها ، واتخذها مثلاً يحتذيه ، يصوره ويقلده بالأصوات أو بالألوان ، فكان الرسام والنحات والموسيقى والشاعر . وكل منهم عمد إلى الأرض والسماء ، والحيوان والنبات ، والإنسان والماء ، يرسمها بخياله ويصفها بفنه ، فيخلف في متاحف الفن صورة لإبداعه ومثلاً من خلقه .

والشاعر العربي فنان مبدع سار في ركب هؤلاء العباقرة الإنسانيين فرسم ما رأى وصور ما شاهد ووصف ما أحسّ ، فترك في المتحف الأدبي صفحات خالدة على اختلاف العصور ، تقف لمتاحف الرسامين والنحاتين والمصورين في إبداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة ، ونقل الصوت والحركة والنشاط ، ورسم الحديث واللون والظل ؛ سواء أكان في رسم الطبيعة أم في تصوير الإنسان والحيوان ، أم في وصف الأخلاق والطباع والعادات . فلعله فهم الأدب على أنه وصف كله ، ولعله سار فيه على أنه وصف حسي مادي ، في مدحه للرجال ، أو هجائه للخصوم ، أو فخره بقبوته وشجاعته ، أو رثائه للأحبة الذين يفقدونهم ، أو في نسيبه وتشبيهه بالمرأة والجمال .

فلما عرض النقاد القدماء لهذا الشعر قسموه إلى أبواب فيها المديح والفخر والهجاء والرثاء والنسيب والوصف . ورأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً ويشملها برذائه حتى قال ابن رشيق : « إن الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف » . وقد جعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزياه

ومحاسبته وخلقته وتكوينه ، وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء ، وأدخلوا الخمر فيها على أنها بعض هذه الأجزاء .

وفسروا الوصف في معاجهم بأنه الكشف والإظهار ، فإذا قالوا : وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ولم يستره ، فهو في عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقد نظر النقاد المحدثون إلى ما قيل في الطبيعة الميتة وفي الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها وهيئتها ، لذلك جمعوا ما كان في الوصف ، فسموه حيناً بشعر الطبيعة وحيناً بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضاً من الفصول والكتب .

وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها في مختاراتهم وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة ، وبعض هذه المؤلفات مطبوع ، كتشبيهات ابن أبي عون وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ونهاية الأرب للنويري ، وبعضها مخطوط كالحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ، والتحف والهدايا للخالدين ، وقد رجعنا إلى هذا كله ، واعتمدنا عليه ولا سبيل إلى ذكر الصفحات والمراجع القديمة والحديثة عند كل استشهاد فذلك يطول ، وفيه الشعر والنثر ، فوقفنا عند الشعر فحسب لأنه ألزم بالبحث .

ونحن حين نجمع هذه الألواح والصور بعضاً إلى بعض ونقرب بينها نستطيع أن نتبين من خلالها صورة للأرض التي عاش عليها العرب من وهاد وتلول ، وصحارى ورياض ، وأنهار وبرك ، وزهر ونور ، وشجر وثمر ، ورسماً للحيوان الذى كان يدب بينهم ، وللقصور التى كانوا يشيدونها ، والطلول التى كانوا يغادرونها ، وللمجالس الشراب التى كانوا يعقدونها ، والحروب التى كانوا يخوضونها ؛ ونلمح الوجوه والملابس لمختلف الطبقات والأهم التى اختلطوا بها ، وما كانوا يستحبون منها ، وما كان يدور بينهم من حديث فيها ، وما كانوا يفضلون من جو وبيئة ، وما ينظرون من الأفلاك والسماء والسحاب والمطر ، فكأننا نتعرف إلى حياتهم

الاجتماعية كما صورها شعراؤهم على اختلاف العصور والأقطار ، وقد انعكست في أوصافهم نفسياتهم وحالاتهم من فرح وحزن ، وحب وكره ، ورضا وحق ، وحرب وسلم .

فقد كانوا يستلهمون من طبيعتهم وزمانهم أوصاف ما تقع عليه أعينهم وتجري فيه أخيلتهم ، في البدو والحضر ، في الحجاز أو في الشام ، في العراق أو في مصر والأندلس ، بل كانوا يختلفون في ذلك حين تقسو الطبيعة أو تلين ، وتسخو الحياة أو تبخل ، فالراعي غير الأمير ، والمقاتل غير اللاهي ، وساكن الصحراء يختلف عن سكان الأنهار ؛ والحياة في العصر الجاهلي تختلف عما آلت إليه في العصر العباسي أو الأندلسي ، فإذا كانت قد تشابهت صور الوصف في هذه العصور فردها إلى الحنين أو التقليد ، أو الضعف وقعود العبقريّة . وأغلب الظن أن العربي تأثر بالأمم قبل الإسلام حين اتصل بالفرس أو بالروم قبيل القرن السادس للميلاد ، فقد عاشت قبائلهم في كنف الغساسنة والمناذرة ، وسافر شعراؤهم إلى هؤلاء وهؤلاء ، فألفوا الغناء الفارسي أو النشيد الرومي ، وانتقل ذلك إلى أقوالهم وأحاديثهم وشعرهم من غير أن تفصح الكتب عن هذا الأثر ، أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل .

فلما انتقل العباسي إلى العراق وتغلغت الحضارة الفارسية في حياته وانتقلت إلى شعره ذكر النقاد هذا الأثر وبالغوا فيه ، لأنهم كانوا يشيرون إلى كل مصدر ، ويبحثون عن كل ينبوع ، ويتحدثون عن فضل الأعاجم ، فأروا أن الوصف طبع بطابع الحضارة الجديدة ، وألم بتقاليد الفرس . ولما كان القرن الرابع للهجرة تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها ، فحلق الشعراء في الوصف وبلغوا ذروة الفن ، وطرقوا الموضوعات في عمق وشمول ، ورسوموا الحياة في كثير من الإبداع والدقة .

وحين عاش العربي في الأندلس ظل قروناً يقلد المشرق ، حتى كان القرن

الخامس للهجرة ، فحاول أن يحدد وأن يخرج عن نطاق الأدب القديم ، فكانت له صور موفقة وأساليب جديدة ، تقع حيناً من القرن الرابع موقع الشبه والمجاورة . ولما أطلّ العصر الحاضر غزت الحضارة ديار مصر ، واتصلت الشام بأسباب الغرب فتحرك الوصف نحو الطرافة والحدة ، وبلغ مبلغاً من التوفيق خلال السنين الأخيرة في الشام ومصر ، يبعث الأمل في أدب المستقبل

وسنعرض في الصفحات التالية فصول هذا التطور ، ونبسّط بعض صور الطبيعة الميته والمتحركة ، فنرى كيف نظر العربي على اختلاف الزمن إلى موضوعات الوصف من حيوان وأرض وسماء وخرم وسلاح وحرب ، في العصر الجاهلي ثم الأموي ، فالعباسي والأندلسي ، إلى أن نبليغ المعاصرين فنلّم في إيجاز بشعرهم في الوصف ، نورد الأمثلة حيناً ونختصرها حيناً ، ونحكم عليها أو لها ، وما هي إلا محاولة في هذا الباب نرجو أن تقع موقع التوفيق ، لسعة البحث وتعدد مناحيه ، والله من وراء القصد .

سامي الدهان

الفصل الأول

العصر الجاهلي

وصف الحيوان

الناقة — الفرس — البقرة الوحشية — الثور الوحشي —

الظليم — العقاب — الذئب

عاش العربي في جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح ،
وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل في سبيل العيش ، ويضرب في
الأرض وراء اللقمة ، فيجتاز مسافات كبيرة ويحترق صحارى شاسعة كأنه
في ركب الحياة على سفينة تتقاذفه تعلو به وتهبط ، فيلقى مصاعبها ومتاعبها
إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من زمن .

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقتسم معه هذا العيش الشديديد يقطع عليه
المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضى معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه
أعظم صديق وأنبى رفيق ، يتحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد
ضالته هذه في الناقة والفرس . فالناقة تنيخ بإناخته وتمهض إلى غايته ، تسير كما
يريد في إرقال أو وخذ ، تؤنس وحشته وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتيح
له أن يغنى أو ينشد ، فالحيوان يتأثر بالموسيقا والحداء .

والفرس صديق العربي في عيشه كذلك في الحرب والسلام ، في الحياة الجادة
والهائلة ، حين يحارب الإنسان أو يصطاد الحيوان ، وهو وفي له يصحبه في السراء

والضراء وحين البأس ، فهو قوته وسلاحه ، وموضع مجده وعزته وفخاره .
 لذلك أحب العربي هذا الحيوان ورأى فيه نجدة وملاذاً ، فهو منبع ثروته
 ومحل إكباره ، يذكره كما يذكر الغزلون المرأة ، يحبه ويستوحى منه . وسنعرض
 لهذه الصور التي صنعها الشعراء في الحيوان الأنيس ، ونجعلها بعضاً إلى بعض
 لنتبين الصورة التي رسمتها أخيلتهم ومشاعرهم لهذا الرفيق المخلص والصديق الوفي ،
 كما نعرض لوصف الحيوان المستوحش بعده ، وهم يطاردونه ويصطادونه ، فيرون
 فيه الشريد الطريد . وسنبداً بالأنيس قبل كل شيء كالناقة والفرس .

الناقة

أحب الجاهلي الناقة لأنها تغذيه بلبنها ، وتكسوه من وبرها ، وتطعمه من لحمها ،
 فهي عنده غذاء وكساء ، وهي حياته في هذه الصحراء . وقد تعاقب على وصفها
 كثير من الشعراء ، سنتخذ أمثلتهم مما بسطته كتب المحدثين ^(١) ، لنرى أيهم
 أجاد في رسمها ووفق في وصفها ، وفيهم بشامة بن الغدير ، وطرفة ، والمسيب ،
 وزهير ، والمتقّب .

أما طرفة بن العبد ، فقد عاش في القرن السادس للميلاد ، وقضى شاباً
 وشقى كثيراً ، ولكنه كان سريع الخاطر حاد الذهن ، فانصرف أول الأمر إلى
 اللهو والأنس والشرب واللذة ، ولذلك كثر لوامه ، وتباعد عنه إخوانه ، فعاش
 حزيناً يهيم على وجهه ، يشتغل بالغزو أو يأوى إلى مغاور الجبال ، لا أنيس له إلا
 هذه الناقة الأميمة الضامرة ، فكان يطوف عليها أطراف الجزيرة ، لذلك طالت
 صحبتها لها ، وكثر نظره إليها ، وأبعد في وصفها حتى أبدع وفاق أقرانه ، فأكسب

(١) أخص بالذكر منها كتاب « الوصف في العصر الجاهلي » - لعبد العظيم القناوى ،
 فهو جامع مانع في هذا الباب .

صورتها نشاطاً وحركة ، وكساها بالظلال ، ورسم جسمها في خطوط كبيرة على دقة واستيعاب ، قال في معلقته :

- وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى (١)
 أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
 لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد (٣)
 وطى محال كالحنى خلوفه وأجرنة لزت بدأى منضد (٤)
 كقنطرة الروى أقسم ربهما لتكسفن حتى تشاد بقرمد (٥)
 وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد (٦)
 وجميعمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد (٧)
 وعينان كالماويتين استكتتا بكهفي حجاجي صخرة قلت مورّد (٨)
 وخد كقراطس الشأمى ومشفّر كسبت اليماني قده لم يحرد (٩)

(١) الاحتضار : الحضور - العوجاء : الضامرة التي لحق بطنها بظهرها - الأرقال : السرعة - تروح وتغتدى : أى تصل آخر النهار بأوله في السير .
 (٢) أمون : يؤمن عشارها - الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموق - نسأتها : زجرتها والمنسأة هى العصا - اللاحب : الطريق البين - البرجد : كساء مخطط .
 (٣) النحض : اللحم - المنيف : القصر المشرف - بمد أو ممرد : أملس .
 (٤) طى محال : أى محال مطوية متراصفة دان بعضها من بعض - المحال : فقار الظهر واحدته محالة - الحنى : ج حنية وهى القوس - الخلوف : مآخير الأضلاع - أجرنة : ج جران وهو باطن الخلقوم - لزت : ألصقت - الدأى : ج دأية وهى فقار العنق - المنضد : الملتصق ببعضه ببعض
 (٥) قنطرة الروى : شبه الناقة بها لانتفاج جوفها وشدة خلقها - الأكناف : النواحي - تشاد : ترفع - القرمد : الأجر .
 (٦) أتلع : العنق الطويل - نهاض : مبالغة في النهوض - السكان : دفة السفينة - بوصى : سفينة .

(٧) العلاة : السندان - وعى : جمع - الملتقى : حيث تلتقى قبائل الرأس .
 (٨) الماوية : المرأة - الكهف : الغار - حجاج : عظم مشرف على العين ينبت عليه الحاجب قلت : نقرة في الحجر تمسك الماء - المورد : الماء .
 (٩) السبت : جلود البقر المدبوعة - لم يحرد : لم يمل فهمى شابة لم تمل مشافرها - القد : ما قد من الجلد .

فالناقة ضامرة نجبية سريعة مرقال ، وذنبها ذيالٌ كثير الوبر يشبه في ذلك جناحي نسر قديم ، ولها فخذان مكنتزان باللحم ، وفقرات متداخلة تكوّن مع الأضلاع قسيّاً متراسّة . وهى فى صلابتها كقنطرة الرومى بناها الصناع بالآجر المتين . إنها ضخمة الرأس طويلة العنق قوية ، ولها خد كالقرطاس الشامى أبيض لا شعر فيه ، ومشفّر كالجلد المدبوغ لم يميل فى تقطيعه ، وعيناها كالمرأتين استكنتا فى كهف جبلى .

هذا إذا وقفنا عند ظاهر جسمها وأعضائها ، ولم نتجاوز إلى حذرنا وسرعة سيرها ونشاطها ، وطاعتها ولين انقيادها ، فالشاعر شبه كل عضو من أعضائها بشيء وقع عليه حسه كالنسر ومشيد القصور ، والقسى والقنطرة والقرطاس الشامى والجلد المدبوغ والمرأة . وهذه كلها فى متناول خياله أو فى ملك نظره يمد يده إليها حين يريد . وقد بسطها بسطاً مادياً حسياً ، فتصور أجزاءها شبيهة بهذه الأشياء . وقد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان وسكت الشعراء عن ترديدها ، وقد كانت مألوفة لعهد فتصرف فيها تصرف المعترز الفخور ، وطرق بها هذه المعانى النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بد من وصفها بهذه المفردات ، ولعله عبد الطريق لغيره من الشعراء فى وصف الناقة والإمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا فى التصوير وساروا على سننه ، وهم كثير لا يحصون ، سنعرض لبعضهم هنا .

أما بشامة بن الغدير ، فقد قال إن أذن الناقة ضخمة تتبلل بالعرق ، ولها صدر عريض كأنه الطريق الواسعة ، وهى شديدة الوطء كالسيد القوى العزيز يطأ الدليل فى جبروت ، وأنها أسرع من نعامه حين يطاردها الظلم ، وهى فى ضخامتها تشبه السفينة تمخر العباب وتجرى فى اليم لا يدركها أين ولا يلحقها ونى ، مكنتزة اللحم ، قوية الفخذين ، متسعة الصدر ، سريعة السير ، تجرى كأنها تخوض فى عباب متلاطم :

إذا أقبلت قلت : مدعورة أطاع لها الريح قلماً جفولا (١)
 وإن أدبرت قلت : مشحونة من الرمد تلحق هيقاً ذمولا (٢)
 وإن أعرضت راء فيها البصير ما لا يكلفه أن يفيلا (٣)
 فإذا أقبلت عليك حسبته قد تملكها الذعر وركبها الفزع لشدة نشاطها ،
 وإذا أدبرت حسبته سفينة ، وإذا تحولت عنك عرفت منها ما لا يخطيء معه
 ظن ولا يخيب فيه تقدير .

والمثقب العبدى ، قال فيها كقول زميليه ، فوصفها بوفرة اللحم وكثرة الشحم
 وممنة العنق ، سنامها ضخمة يشبه قبة القصر العظيم ، ممتلئة الوجنتين ، ثخينة
 الجلد وأعضاؤها كأعضاء الحمل ، تتسامى بعنقها إذا سارت وكاهلها سامق
 كالحصن المنيع . وهى كذلك سريعة الجرى جميلة فى إرقالها ووخدها ، تصل
 الليل بالنهار ، ولا تحوج حادياها إلى زجر أو نغم ، تشبه فى جمالها الثور الوحشى
 ولا يصف المثقب أعضائها كلها ، ولا يبلغ إلى إحصاء كل ما فيها ، وإنما
 يذكر خدمتها له وقيامها بمهمتها فى صبر وجلد ويقظة ، وهذا كل ما يحتاج إليه
 السارى والراكب .

وزهير بن أبى سلمى ، يصفها ضخمة الوجنات وثيقة الأعضاء تشبه الحمل
 كذلك فى خلقها وانبساط هيكلها ، نشيطة سريعة ، تطيع فلا تحتاج معها إلى زجر
 أو ضرب أو تشويق ، تسير الليل والنهار فى صبر وجلد ، وتعرق حين تغد فى
 مسافات شاسعة واسعة ، وذنبها ريان غليظ ضخمة تضرب به ساقها ، تجرى فى
 سرعة كالريح لتبلغ بك إلى الهدف وتصل إلى يم النجاة ، تشبه البقرة الحنساء فى
 جمالها وتكوينها ، كريمة عزيزة جوابة الآفاق ، ذكية الفؤاد ، شديدة الذعر مخافة

(١) أطاع لها : هيا لها - جفولا : مسرعاً .

(٢) مشحونة : مملوءة - الرمد : ج أرمد ورمداء وهى النعامة - الهيق : ذكر النعام -
 ذمولا : مسرعاً .

(٣) راء : رأى - يفيلا : يخطئ .

أن ينهال عليها السوط ، وزهير في وصفه لا يرسم الأعضاء كلها ولا يفصل القول فيها ، وإنما يتحدث عن حاجته إليها في السرعة والصبر وعظيم الخدمة .

والمسيب بن علس ، شارك في وصف الناقة ، ورسمها ضامرة الخصر واسعة الخطو ، حديدية البصر ، شديدة الإذعان ، ظهرها كقنطرة ملساء ، مكتنزة اللحم ، وسنامها ضخمة متعال يشبه أكمة الرمل ، وعنقها مستطيل كالشرع ، قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة في أرض منخفضة سهلة ، أو كأنها في سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء وتطوى شرع النهار . وهذه الصورة يعبر عنها في أسلوب جميل بين يقول :

مرحت يداها للنجاء كأنها تكرو بكفى لاعب في صاع ^(١)

فعل السريعة بادرت جدادها قبل المساء تمهم بالإسراع ^(٢)

فدلنا بذلك على ما كان للاعب في أرض العرب وما للمرأة من عمل في بيتها حين تختلس ساعات النهار في نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا بردائه . وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته فيرسمها لاعبة لاهية أو يصور النساء في عملهن اليومي .

وهؤلاء الشعراء يتشابهون في وصف نياقهم ، فيرسمونها بالضخامة والقوة وسرعة الجرى وشدة الطاعة ويستعملون في ذلك الصور الحسية المادية ، ويشبهون كل عضو بصورة عرفوها وألفوها في حياتهم الاجتماعية . يشبهونها في قوتها بالإبل وهذه معروفة بالسرعة والقوة ، ويرون فيها سبيلاً للنجاة من المفاز والبادي ، وسفينة في عباب الصحراء يركبونها إلى غاياتهم وأهدافهم ، فلا تتوانى ولا تتمهل ولا يدرکها تعب أو إرهاق ، على أنها تشاركهم الشقاء في العيش

(١) مرحت : نشطت - النجاء : الإسراع - تكرو : تلعب - الصاع : المنخفض من

الأرض .

(٢) الجدادة : ما بقى من خيوط الثوب .

والضئك في الحياة ، وتقاسمهم الآلام والآمال ، فتحس برغباتهم وتطيع حاجاتهم ،
تسرع من غير وقوف ، وتسير من غير زجر ، وتجرى من غير حذاء أو غناء .
وقد سبقهم طرفة فوصف ما وصفوا ، وأضاف إلى أوصافهم أعضاء الناقة ،
ولكنه أوغل في غرابة اللفظ وأسر المفردات ، فزاد على زملائه في خشونة التعبير ،
وسبقهم في دقة التصوير .

الفرس

وإذا كانت النياق وسيلة النقل — كما نقول اليوم — فالخيل كانت للركوب
في الزينة والصيد والحرب ، تشارك الفرسان في الطعن والضرب واللهو والصيد ، وقد
أقبل عليها شعراؤنا فوصفوها لجمالها وسرعتها ، ولمشاركتها في المواقع والمعارك والمآسي
والملاحم والأفراح والأتراح ؛ فهي للترف كما هي للحاجة . وقد جاء في كتب
الأدب أن العرب كانت ترتبط الخيل في الجاهلية والإسلام معرفة بفضلها وما
جعل الله تعالى فيها من العز والفضل ، فتكرمها وتؤثرها على الأهليين والولد ،
وتفتخر بذلك في الشعر والنثر .

وقد نقل في هذه الكتب أن داود نبي الله أحب الخيل حبا شديداً ،
فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه
حتى جمع ألف فرس ؛ وجاء فيها أن سليمان أحبها كذلك . ونسجت كتب
الأدب حول الخيل صفحات عديدة تشرح فضلها ، وما قال فيها القدماء
من شعر وما حام حولها من أساطير وقصص ، وما اتخذوه لها من أسماء خاصة
وأنسب معينة تجدها في «أنساب الخيل» لابن الكلبي وفي «الحيوان» للجاحظ ، وفي
«حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل وغيرها ، يطول بنا المقام إن عرضنا ما
تقول فيها . فحب الخيل قديم قبل الإسلام وبعده ، وذلك لتعلق العرب بهذا الحيوان
وطول صحبتهم له وشدة أنسهم به . فلا غرابة إن نشأ ديوان ضخم في رسمه منذ

الجاهلية ، فقد وصف الفرس كثير ، وفيهم امرؤ القيس ، وعنزة ، والمرقش الأصغر . . .

أما امرؤ القيس ، فقد وصفها في مواقع عدة من شعره في المعلقة وغيرها ، فرسمها في ضخامتها وقوتها ، وصور ظهرها وخصرتيها وساقها وذنبها ، واكتفى بالخطوط العريضة الكبيرة كما فعل طرفة بناقته ، ولكنه لم يشبه أجزاءها بالقصور والدور والسفن والقناطر ، وإنما عمد إلى الطبي والنعامه والتغلب والذئب والصخر والمطر والجبل ، وتطرق في وصفه إلى الأطفال البنات والنساء فشبه أعضائها بشيء من هذا كله ، أو بما يقومون به من ألعاب وحركات ، واستعان بالتشبيهات على عرض صورة للمسافة والحيز واللون لعله يقر بنا من أوصاف فرسه ، ونفخ في الصورة بروح الحركة والنشاط بما يستلزمه الصيد والطراد فقال :

- ✓ وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
 ✓ مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
 ✓ كمت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
 ✓ على الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
 مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل (٥)

- (١) أغتدى : أذهب باكراً - الوكنات : ج وكنة وهى عش الطائر وبيته - المنجرد : قليل الشعر - قيد الأوابد : يقيدها بسرعة ركضه - هيكل : عظيم الحرم .
 (٢) كرفسه على عدوه : عطفه - مفر : مبالغة في الرجوع - الجلمود : الصلب من الصخر
 (٣) الكمت : ما لونه بين السواد والحمرة - الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس - الصفواء : الصخرة المساء - المتنزل : صفة لمخزوف تقديره المطر .
 (٤) الذبل : الضمور والضعف - جياش : مبالغة من الجيشان وهو الهياج والغليان - الاهتزام : صوت الفرس في سرعة السير .
 (٥) مسح : مبالغة من السح وهو الصب والدفع - السابح من الخيل : الذى يمد يديه في عدوه - الونى : التعب - الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة - المركل : الذى وطنته الأرجل .

- يزل الغلام الحلف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل (١)
 درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل (٢)
 له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
 ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فوق الأرض ليس بأعزل (٤)
 كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل (٥)

فهو يغدو باكراً قبل أن تهجر الطيور وكناتها، فيعتلى صهوة جواد قد انحسر شعره لشدة سمنه، ماض لا يقف، سريع يسيق الوحوش الأوابد فيقيدها بسرعه وما تستطيع منه فكاً، وهو يكر فلا يلحق ويفر فلا يسبق، يقبل ويدبر شديد الحركة عظيم القوة، يجري كالحجر الكبير حين يسقطه السيل من أعالي الجبال، ضخم في جثته، مكتنز اللحم حتى ليسقط البلد عن ظهره سقوط الماء على الصخرة الملساء؛ يهمل في ركضه كما يجيش المرجل بالماء. وإذا كانت الجياد تثير الغبار لكلالها فهو ينصب انصباباً، فلا يثبت الغلام الخفيف على صهواته، ويسرع كالخذروف في يد الصبي.

ولذا الفرس خاصرتا ظبي وساقا نعامة، يسير كما يسير الذئب، ويجرى كالثعلب الوليد، وهو على ضموره عظيم الأضلاع إذا تأملتته مستدبراً رأيته يسد الفضاء بين قائمتيه بذنبه الطويل، وإذا نظرت إليه بغير سرج وجدته يلتمع

- (١) الصهوات : ج صهوة ، وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس - العنيف : ضد الرفيق .
 (٢) درير : صفة للفرس الذى يدر الجرى أى يديه ويتابعه - الخذروف : آلة مستديرة من جلد أو خشب يديرها الصبيان بخيط أدخل في ثقبها .
 (٣) الأبطال : الخاصرة - إرخاء : ضرب من عدو الذئب - السرحان : الذئب - تقريب : ضرب من العدو كذلك - تتفل : ولد الثعلب .
 (٤) ضليع : عظيم الأضلاع - استدبرته : نظرت إليه من مؤخره - الفرج : الفضاء بين اليدين والرجلين - ضاف : طويل - أعزل : يميل عظم ذنبه إلى أحد الجانبين .
 (٥) المتنان : ما على يمين الفقار وشماله - انتحى : اعتمد - المداك : الحجر الذى يسحق به الطيب - الصلاية : الحجر الأملس .

جلده كما تلمع الصلابة والمداك في بريق ولمعان .

والشاعر في وصفه الفرس يختار له الضخامة والقوة والصلابة والسرعة، ويختار لوصف ذلك صورا من الحياة التي يراها والأدوات التي يصبح عليها ويمسى ، فهو كالصخرة المتحدرة مع السيل ، وهو في صوته كالمرجل حين يغلي ، وساقاه كالنعامة ، يشبهه حيناً بالثعلب وحيناً بالذئب . وما نرى جاهلياً يستطيع أن يصطاد ألواناً أكثر من هذه ، أو يجمع تشبيهات أوسع ، فقد أوفى على الغاية في رسم القوة والسرعة . ولعله بذلك نحت تمثلاً للفرس كأجمل ما يصنع المثال في خطوطه العريضة . ولكنه لم يرسم العينين والوجه والغرة والعروق ، وإنما وصف الحركة والضجة والصوت والنشاط ؛ وذكر الخدمة التي يؤديها لصاحبه في سرعته وبلوغ غايته . ولعل هذا كل ما يطلب امرؤ القيس من فرسه ، يفخر به ويعتز بامتلاكه .

وعنترة بن شداد العبسي ، افتخر بفرسه كذلك ووصفه بأنه ضخم الجسم عظيم الأعضاء ضامر الخصر متلاحق الأقارب ، عظيم الكفل مكتنز اللحم ، ممتلئ بالشحم ، ولكنه على ذلك كله لين العريكة سهل القياد كثير الحركة يتلاعب بحديد لجامه .

والفرس عند عنترة كذلك في جريه يشبه السيل المنهمر على الصخرة الملساء ، ولكنه وصف وجهه ورسم منخره كسردابين مفتوحين ، يستكن فيهما الضبع لاتساعهما ، وصور حوافره بصلابتها كأنها من صخر ، وجعل ذنبه في طوله كرداء سابغ لرجل غنى واسع الثروة ، وقد أبدع في وصف عينيه ومشيته حين قال :

سلس العنان إلى القتال فعينه^١ قبلاء^٢ شاخصة^٣ كعين الأحول^٤ (١)
وكان مشيته إذا نهته^٥ بالنكل مشية شارب مستعجل^٦ (٢)

(١) سلس العنان : لين القياد - قبلاء : ناظرة إلى أعلى - الأحول : الرجل الذي يحرف إنسان عينيه إلى أحد الجانبين .

(٢) نهته : زجرته - النكل : حديدة اللجام .

شبهه بالإنسان الأحول في عينه والشارب المسرع في سيره ، فرسم الأشخاص واستعار في لوحته من ملامح وجوههم وتعثرهم في الشرب ، فكان موفقاً مبدعاً أيما إبداع ؛ فهو قد أضاف إلى صور الفرس تشبيهات جديدة إذا ضمت إلى صور امرئ القيس خرجنا بمتحف فني لهذا الحيوان الجميل .

والمرقش الأصغر ، ربيعة بن سفيان ، كان من الشعراء الفرسان وكان يغلو إلى الصيد بفرس صافي اللون ، ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق ، أغرّ الجبهة ، محجل القوائم ، يصيد الشوارد ويقنص الأوابد ، يشاركه حربه وسلمه ، جدّه وهوه ، ذلول سلس العنان سهل القياد ، لكنه حين يثور تسمع له همهمة وزجرجة كظبية فتية قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن ، فهو سريع واسع الخطا حين يشدّ على العدو ويندفع اندفاع الأتّي ، فليس فيه عيب ولا يلحقه نقد ، لذلك كان موضع فخره واعتداده واعتزازه ، لا يسبق مطروداً ويلحق بخصمه طارداً ، ويخرج بصاحبه من كل ضيق ، وكذلك تكون الجياد .

والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه ، وإنما يصف فرسه بصورة عامة ، ويعدّد منافعه في لغة أقرب إلى السهولة من شعر أقرانه ، وأدخل في الموسيقى من معلقات أضرابه ، حين يقول :

على مثله آتى الندى مخايلاً وأغمز سرى أى امرئ أربح^(١)
ويسبق مطروداً ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويجرح^(٢)
ولن نعرض لشعر الجاهليين في وصف الفرس فهو كثير تجده في كتب الأدب والمختارات لا يخرج عن أوصاف هؤلاء الذين ذكرنا ، وربما أضافوا إليها وصف القوائم المحجلة ، وعوذوها بالرقى كما فعل سلمة الغطفاني ، أو جعلوها ذكية

(١) الندى : النادى - مخايلاً : مختالاً - أغمز : أشير .

(٢) مطروداً : يطرده فارس وراءه - طارداً : يطرده غيره أمامه - غم المضيق : شدة الأمر -

يجرح : يصيد .

الفؤاد متوقدة الإحساس شديدة الشعور ، فأعاروها من نفوسهم مشاعر الحزن والفرح ، والثورة أو الهدوء ، وذلك رسم لعواطفهم وخلجات أنفسهم ينعكس على ما يرسمون .

والخيل الجياد كانت عندهم — كما قلنا — للصيد والاهو والحرب والقتال ، وكانت زينة وموضع فخر ، لذلك رسموا شياتها وصوروا سماتها ، ووصفوا خلقها ونبلها ، وكانت أوصافهم موضع بحوث اللغويين وأرباب المعاجم ، فجمعوا منها مادة غنية في مفردات اللغة لأوصاف الحيوان ، وكتبوا فيها مؤلفات واسعة ، يحسن الرجوع إليها للوقوف على عناية القوم بهذا الحيوان ، ومعرفة ما كانوا يصفون منه ، وموضع اهتمامهم بأجزاء الفرس ، ومبلغ إلحاحهم في ذلك .

الأوبد

وأما الأوبد ، فقد وصفها شعراء الجاهلية كذلك فأمعنوا في تقريبها من أذهان السامعين ، وأهم أوصافها ما كان في شعر لبيد بن ربيعة ، والناطقة الديباني ، وسويد اليشكري .

فأما لبيد ، فهو يرسم ناقته فيشبهها بالبقرة الوحشية في قوتها وضراقتها ، ثم يستطرد كما يفعل غيره إلى بقرته ، فيقول إن السبع قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى في القطيع ، فلما عادت رأت أن لا شيء يعوضها وليدها فثارت وهاجت ، وراحت تنوح وتبكي ، وهي ما تفتأ تذكر ذلك العزيز الذى طوته الأرض وغطاه التراب ، وتناثرت أشلاؤه . وزاد الشاعر في وصف الحزن فجعل الأمطار تشاركها في عبراتها وتبكي معها لبكائها ، وهكذا اجتمع على البقرة الحزن والبرد والمطر فلجأت إلى جذع شجرة نائية تقضى ليلها في جزع وفزع ، وظلت على ذلك ثمانية أيام حتى جف ضرعها .

وبالغ الشاعر في الجزع فتصور أنها سمعت صوتاً أفرعها ، وأنها عرفت أن

الصيدادين في سبيلهم إليها ، وأنهم رسل المنية ، ووقفت تنتظر المعركة بقلب خافق ، فإذا بكلاب الصيد مسترخية الأذان مزينة بالقلائد في أعناقها قد هجمت عليها ، فوقفت لمن لتودهن عن نفسها ، تستमित لتعيش ، فلما وثبت عليها كلبة من الكلاب ضربتها بقرنها فأدمتها وكان النصر .

وهذه الصورة الممتعة لم تعرض لأعضاء البقرة ، وإنما وصفت حزنها وشجاعتها ودفاعها عن نفسها واستماتها في سبيل حياتها . فهو لم يقصد إلى وصفها وإنما عرض لرسمها كوسيلة لا غاية ، يصف الناقة ويقربها جملة من البقرة الوحشية ليقفنا على حزن الناقة في مظاهرها وقوتها وشجاعتها ، فقرنها بالبقرة . وصورته بليغة في رسم وحشية الصيدادين والبطولة الحارقة التي يمثلها هذا الحيوان في الدفاع عن نفسه .

وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة في الشعر الغربي الفرنسي رسمها ألفريد ده فيني لذئب أقبل عليه الصيدادون في الليل وأرسلوا كلابهم إليه فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكبه حتى فارق الكلب الحياة ؛ رغم الطلقات النارية والمدى الحادة التي كانت تمزق أحشاء الذئب . وليس من فرق بين الصورتين إلا في الفلسفة التي أضافها الغربي ، إذ امتدح نظرة الذئب إلى الحياة يتركها في شجاعة وصمت ، فهما كل العظمة وما سواهما جبن وخور ، وللإنسان أن يتخذ منها عبرة . وأما الشاعر العربي قبل اثني عشر قرناً فلم يفلسف قصيدته .

والناطقة الذبياني فعل مثل لبيد ، فرسم الثور الوحشي في مكان قليل الماء عديم الغذاء ، ووصفه ضامراً كالسيف ، قد اجتمع عليه كذلك البرد والخوف والحذر والجوع والظما ؛ فهو هلع خائف يتوقع صياداً يكشف مكانه أو كلاباً تهاجمه . وقد وقعت الواقعة فهجمت عليه الكلاب وكانت معركة حامية طعن فيها الثور بطن الكلب فشقه وضربه بالدم فأصبح كأنه سفود تركه الشرب على النار فاحمر واشتعل . وكان الكلب يعض قرن الثور ولكن من غير جدوى فقد مات

بعدها وهربت الكلاب يأساً وفزعاً لأنها لم تجد في الفريسة مطمئناً ، فارتضت من الغنيمة بالإياب .

وقصة النابغة كقصة لبيد تصف الحيوان المطارد خائفاً جزعاً ، فاستبسل واستمات فسلمت له الحياة . وقد استخدم النابغة ألواناً جديدة في وصف الثور ، فجعل قرن الثور يشك فريسته كالبيطار يضرب بالمبضع ليشفى من الداء : شك الفريضة بالمدري فأنفذها شك المييطر إذ يشفى من العضد (١) كأنه ، خارجاً من جنب صفحته ، سفودُ شرب نسوهُ عند مفتاد (٢) فذكر الشارين حول النار والسفود يحترق فيها بعد أن نسوه ، وصور البيطار يعالج داء العضد ، وكل هذا من حياة البادية وألوانها .

وسويد اليشكري ، وصف الثور الوحشي ضافى الذيل أسيل الخلد أسود الفخذين في حمرة تكسوها جمالاً وتكسبهما رونقاً ، ورسمه حين يعرض له الصياد وكلابه ، فيولى عنها مدبراً ويجرى مسرعاً ، فتعجز عن لحاقه وتقع عن إدراكه لأنه ابن الصحراء وأخو المفازات ، وله أن يسخر من أعدائه وأن يشمت من الكلاب ؛ فالشاعر يرسم مطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم وهم يلحقون به .

وامروء القيس ، مثل سويد ، يشبه ناقته والرحل فوقها بالحمار الوحشي ، فيرسم هربه من كلاب الصيد تشد وراءه وهو يخلف في حربه سحاباً من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والحيبة ، فتقع عن إدراكه ، وتنحدر إلى ظل أشجار الغضا يائسات من لحاقه لأنه كان يسابق الريح .

والشاعر يصف الحمارة جائعاً ظامئاً طاوى الحشا ، خائفاً متوجساً وحنراً

(١) شك : طعن - الفريضة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الخاصرة - المدري : القرن - المييطر : البيطار - العضد : داء يصيب العضد .

(٢) صفحة : جانب - سفود : حديدة يشوى عليها اللحم - الشرب : جماعة الشارين - المفتاد : موضع النار التي فيها الشواء .

متر بصاً ، لم ينل من الطعام ما يمسك به الرمق ، فهو كالضبع إذ يميل التراب
لهيئة فراشاً لنومه ساعة الظهيرة ثم يغفو كالأسير المقيد .

والطريف في هذا الوصف أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته وقد أدركته
الكلاب وأمسكت به فزقته تمزيقاً كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان وهم يتبركون
بهم ويلتمسون منهم المغفرة :

✓ وأيقنَّ إنَّ لاقينه أنَّ يومه بذى الرمث إن ما وتنه يوم أنفس^(١)

✓ فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس^(٢)

وعلقمة الفحل ، يشبه ناقته بالظليم ، وهو ذكر النعام ، فيقول فيه إن
لونه أحمر حتى لكأنه خضب بالحناء وقواده قصيرة الشعر ، وفه ضيق رقيق
الشفتين ، أصم لا يسمع الأصوات ، صدره كعصا الأوتار فى تقوسه ، دقيق
الرأس والعنق ، ينشر جناحيه ويضمهما أبداً ، ويجتمع إلى فراخه الصغيرة ، وهم
بروك ، فكأنهم أصل النخيل يهيجهم المطر وتسوقه الريح ، ويدفعه الهواء الملبد
بالغيوم ، فهو فى سير متواصل وسرعة لا تماثلها سرعة .

وعجيب أن تقع على هذا الوصف فى الجاهلية ، فهو شامل حافل ،
يصور الحيوان بين أولاده على مقربة من عرسه اللطيفة ، ويرسم ما يكون فى هذه
الأسرة الحميلة من تحاب وتواد ؛ ولسنا نرى قرب الشبه بين الظليم والناقة إلا فى
الطيش وسرعة الجرى وخفة الجسم .

وهؤلاء الشعراء وصفوا ظواهر الأوبد ، وتطرقوا إلى وصف بعض الأعضاء ،
فلعل مرد ذلك إلى أنهم كانوا يركبون فى صيدها والحصول عليها ليس غير ، فلم

(١) أيقن : الضمير عائد على الكلاب - ذو الرمث : مكان يكثُر به شجر الرمث وهو
كالغضا ترعاه الإبل - ماوتنه : صابرته وجالده حتى الموت - يوم أنفس : يوم إرهاق الأنفس .

(٢) يأخذن : يعضضن - الساق : ما بين الكعب والركبة - النسا : عرق من الورك إلى الكعب
شبرق : مزق - المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس .

تكن لهم كما كانت الناقة والفرس يعيشون معها ويصبحون ويمسون عليها ، وإنما كانوا يرونها فارة هاربة تعرض عنهم كأنها ما تريد اللقاء ، لما كان يقع منهم من عدوان عليها وسعى في اقتناصها وقتلها ، فهي دائماً جاحمة نافرة .

وكان العرب على ذلك ينظرون إلى هذه الأوبد نظرة الحب والإعجاب والرضا ، يريدون أن يحصلوا عليها وما كان ذلك بالهين ولا باليسير فكانوا يطاردونها بكلابهم ويسعون إليها بقسيمهم ، وربما جروا مسافات شاسعة في سبيل ذلك يمرون بالماء والصحراء والنبت والسراب ، ويلقون عناء في لحاقها ، فإذا طاردوها وقعت معركة فيها نضال وغبار ودماء ، تخرج منها في أكثر الأحيان منتصرة وتقع الكلاب دامية قتلى .

وهذا ما صورته الشعراء فخلفوا صوراً لهذه المعارك لا تقل روعة عن صور النياق والحياد في متحف الوصف الفني ، لو تعمد مصور أن ينقلها من اللفظ والقصيد إلى الريشة والقماش لفاقت كثيراً من لوحات المتاحف العالمية .

* * *

ولم يقف الشعراء عند هذه الحيوانات وإنما تطرقوا إلى غيرها فرسموا لها صوراً خالدة وهى تتعارك فيما بينها ، كما يتعارك الإنسان ؛ ورسموا هذه الحروب التى كانت تشب بين العقاب والذئب أو بين العقاب والثعلب أو بين الصقر والقطاة . ووصفوا الذئب والغول والحية والثعبان والأسد . وسنعرض بعضه عرضاً سريعاً لننتهى منه إلى أن هؤلاء الشعراء الرسامين خانهم الحظ فحرمهم من مدارس الرسم فلم يمسكوا بالريشة ولم يقفوا أمام القماش ، ولم يغطوا أقلامهم من هذه الألوان وإنما نشئوا على الفطرة فرسموا كل ما رأوه بخيالهم ، فسال في قصيدهم وكان ذلك روعة فى الفن لا تبذلها روعة فى شعر الأمم والأقوام لمثل عصرهم وثقافتهم .

رسم امرؤ القيس في إحدى قصائده فرسه وأراد أن يقرب الصورة وأن يجسمها في الأذهان فجعلها شبيهة بعقاب ، وراح يرسم العقاب في أعالي الجبال والقمم وقد لحت عن بعد ذئباً فانقضت من حلق ، وانحدرت إليه ، فهوت كما تهوى الدلو المثقلة بالماء قد انقطعت عراها فسقطت كجلمود الصخر ، وأرسلت مخالباً إليه وأنشبت أظفارها فيه ، فانسَل الذئب من تحتها بعد أن نقب جنبه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور ليختفي وراءها حيناً ، ويشير الغبار ليحجب عنه العقاب أحياناً ، ولكن المنية لم تخطئه ولم ينفعه التهرب فقضى !

وهذه الصورة الممتعة جاءت في متاحف الفن الغربي صورها الفنانون بالألوان فرسموا انقضاخ العقاب على الذئب ، ولكنهم لم يوفقوا إلى هذا الكر والفر بين الحيوان المفترس والذئب الهارب ، لأن الصورة لا تتسع لمثل هذه الحركة ، ولم يبلغوا إلى هذه الحكمة التي أرسلها امرؤ القيس :

صبت عليه ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب (١)
وهذا عبيد بن الأبرص يصف العقاب كذلك فوق رابية عالية قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة ووفرة الآلام والأحزان ، فإذا كان الصباح أبصرت ثعلباً يجري في فلاة قاحلة ، فطارت إليه وأدركته فطرحته على الأرض وجثمت فوقه وقتلته ، وثقبته بمخالبا الحادة ، وأرسلت أظفارها تنقب في صفحته وهو في هلع شديد وجزع عظيم ، يصيح ويستغيث ولكن من غير جدوى .

وهي لوحة جميلة كذلك تصور الثعلب في خوفه ، والعقاب في انقضاخها عليه في شيخوختها ، ولكن هذه الصورة شبيهة بأختها لا تختلف عنها أيما اختلاف

(١) صبت عليه : اندفعت إليه - أمم : قرب

رويناها لنقرب بين الشاعرين ، لعلنا نصور الغاية التي وقف عندها الشعر الجاهلي في مثل هذه الألوان ، كصيد الصقر للقطاة عند زهير بن أبي سلمى وغيره

الذئب

وقد وصف الجاهليون الذئب كما وصفوا غيره من حيوان الفلاة ، فرسموه طريداً شريداً جائعاً يائساً بائساً ، وسنعرض هنا شاعرين صوراه فأحسننا ، هما : الشنفرى والمرقس الأكبر .

أما الشنفرى فقد رأى فيه حيواناً تتقاذفه الفلوات وتهاداه المفاوز ، يهوى في الأودية والجبال باحثاً عن قوت ساعياً إلى طعام ، فيعوى بائساً وينوح هزليلاً ، ولا يردد صدهاء إلا إخوته الذئاب بيض الوجوه شيب الرعوس ، مشقوقة الأفواه كشقوق العصا ، عابسات الملامح كريهة المنظر بشعة ، لأنها تعيش على الصدى وتتقوت بالسراب ، وتغضى على الجوع وتغض أجفانها على القذى .

والمرقس الأكبر ، يقص علينا أنه أوقد النار لشوائه فتزل به ضيف أطلس اللون أغبر ، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال إنه بخيل على جلسيه ، فعاد الذئب جذلان فرحاً يهز رأسه غبطة وسروراً كأنه بطل عاد من الميدان بنىء كثير ونصر كبير . وهذه الأبيات تصور نفسية العربي في الكرم والسخاء وحب الأحذوثة الطيبة وجميل السيرة ، ولكنه لم يصف الذئب في أعضائه أو أجزء جسمه .

وهذان الشاعران وصفا الذئب في يأسه وبؤسه وجوعه وهزاله ، فجعلاه يبحث عن القوت والعيش على موائد الكرام .

* * *

ولسنا نتعرض بعد هذا إلى وصف الغول أو الحية أو الثعبان أو الأسد ،

فهم رسموا الخوف منها والذعر لمنظرها . ولكننا نحب أن نجمل الرأى فى وصفهم للحيوان ، فهم صهروا الأنيس والمستوحش ، فأجادوا فى رسم أعضاء الناقة والفرس وأحسنوا فى وصف ما يكون من الحمار الوحشى أو البقرة الوحشية أو الذئب والعقاب . وقد وصفوا الأنيس كذلك فى قوته وضخامة جسمه وتحمله المشاق وبلوغه إلى الغايات ، ورسموا المستوحش فى جوع وظمأ ويأس وفقر كأنهم يفرقون بين الحيوان الذى يعيش فى كنف الإنسان على عز ورعاية وحب ، وبين الحيوان الذى يعيش هرباً من الإنسان على خوف وذعر ورعب ، أو لكأنهم يجدون فى الآنس صورة للرجل المترف والبطل المناضل والشجاع الفارس ، ويجدون فى المستوحش صورة للصعاليك واللصوص وقطاع الدروب .

ونلاحظ كذلك أنهم استخدموا فى تعبيرهم الألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة عند ما وصفوا الحيوان ، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم بعض الشيء ، وخفت وحشية الألفاظ — كما رأينا فى كتاب الغزل والثناء ، وكما نرى بعد فى فن المديح إذ تشترك فى المعلقة الواحدة أو القصيدة عينها هذه المعانى جميعاً كأنها مجموعة من الأغراض والفنون تجمعها قافية واحدة . ونرى كذلك أنهم عمدوا فى وصف الحيوان إلى البحور الطويلة لعل الأبيات تتسع لمعانيهم كاملة فيستقل كل بيت بالخطوط التى أراد الشاعر بيانها .

ولعلنا أطلنا فى عرض الوصف عند الجاهليين ، وذلك لأننا نعتقد أنه كان دغامة متينة للعصور التالية وأساساً عميقاً يبنى عليه الشعراء فى المستقبل شامخ مجدهم وعزهم ، يقلدونه ويأخذون منه على كر الزمان والأحقاب .

الفصل الثانی

العصر الجاهلی

وصف الطبيعة المیتة

الأطلال - الصحراء - الليل - السحاب والمطر

قامت حياة العربی على الرحلة والانتقال سعياً وراء الكلاً وبحثاً عن الماء، یقیم حيث یرى الرزق، فیحل بخیمته وینصب أثافیهِ ویوقد النار ویعیش حتی ینضب هذا المورد فینتقل إلى غیره، ویعیش بذلك فی مساس مع الطبيعة وتجاور مستمر، یرعى النجوم فی أفلاكها، وینظر إلى السماء وكواكبها، ویراقب السحب والغيوم والرعد والبرق، یعبر الصحراء ویمر بالوهاد والتلول والنجاد والسواقي والمياه، فهو فی صلة مع هذه الظواهر لا تنقطع، تقع علیها عیناه فی الصباح والظهيرة والمساء واللیل كأنه راصد فلکی أو جغرافی باحث ! ..

ولیس غریباً أن یقع على آثار من حل قبله أو یمر بالأماكن التي نزل بها غیره، فیری الأطلال والديار والدمن والأوطان بین نازح یرتحل ومنیخ یحط رحله، فتتنازع الشاعر عواطف غریبة لهذه الصحراء والبادية والخباء والخيام، ویری فیها موضوعات مختلفة، تحدثه الأحجار عن حب سلف أو معركة نشبت أو قوم لهوا أو غارات وقعت، فینطلق لسانه بما یلفه من مكان أو یطوف برأسه من حوادث الزمان، فیرسم الطبيعة ویصور ما تقلب علیها من حب وحرب وطعن وضرب وصید وقنص .

وقد وصلت إلينا في الشعر الجاهلي أوصاف الأطلال والليل والسحاب والبرق
والغيث والصحراء سنعرض لها في إيجاز كذلك، لنتبين أين مكان القوم من هذه
الصناعة أو هذا الفن .

الأطلال

عرض امرؤ القيس في معلقته إلى هذه الأطلال فوصف رسوم الديار وقد
تقلبت عليها الرياح السافيات ، ورسم بعر الآرام تملأ العرصات صغيرة كحب
الفلفل ، فبكى لرحيل القوم وزفر في أسي ، ولكن الدموع لا ترد الأحبة والأسى
لا يقرب البعيد .

وعرض زهير بن أبي سلمى إليها كذلك فرآها قد انمحت ودرست ، وصارت
بعد أن هبت الريح وجرى السيل كبقية الوشم في عروق المعصم ، وقد أصبحت
هذه الأطلال موطناً للآرام ومرتعاً للبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان إلى مكان ،
ولم يبق من أثر الحبيبة وأهلها إلا هذه الأحجار السوداء وقد تقلبت عليها النار
فاختلطت حمرتها بالسواد ، فأين دارها بعد عشرين عاماً ، وأين كانت تميز
وتختال ! لقد حملت الريح كل شيء ولم يبق في ذاكرة زهير إلا صورتها البعيدة
تعيش في خياله .

وأما لبيد بن ربيعة فقد وصف الأطلال كزيميليه ، فرأى أن حججاً كثيرة
تقلبت عليها فأصبحت مرعى الظباء والنعام والبقر الوحشي ، وغدت مرتع
الأوبد بعد أن كانت موطن الجمال والحب والفتنة ، وقد تعاقبت الرياح والسيول
على هذه الأطلال فكشفت عن آثارها القديمة ، فغدت كأنها كتب تقادم عهد
كتابتها فجدد الكاتب سطورها ، أو كأنها وشم ذهب أثره في اليد فأعادت المرأة
شكله بالكحل تذره عليه . وما بدت هذه الديار واضحة المعالم حتى وقف الشاعر -
يتخيل الأحبة وقد عادوا مع الربوع واستوطنوا بعد غيبة ، فناجهم وسأل الرسوم

عنهم ، ولكن لا جواب ولا حديث ، وإنما الوجد والهوى يخيل معهما للعاقل ما لم يقع ، فكأن اللب قد سلب أو كأن العقل قد شرد .

والنابغة الذبياني ، نظر إلى الأطلال فتصور مجالس الحيوان ومعاقبه والخدام ، قد خلت السبيل للماء المنهمر يغمر الدار ويبلغ إلى الأثاث ، فقد خلت من أصحابها وأخنى عليها الدهر .

والمرقش الأكبر ، رأى الدار خالية مقفرة ، احتمل أهلها ليلاً لأنهن " منعمات لا يحتملن سفر النهار ، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة ، فحمر الوحش المكان وسكنته البقر ترعى العشب وتمرع في الأرض كأنها رجال من العجم يختالون في قلائسهم .

والحارث بن حلزة الإشكري ، أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشي بيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس في سطوعها ، وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها .

وثعلبة بن عمرو العبدى ، مغمور في الشعراء ، ولكنه ترك وصفاً رائعاً للديار الخالية ، يتلخص في أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه فعل الأصباغ في زخارف البيوت ، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقة وأشكالاً منمنقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها في هدوء وسكون لا تطرف عينه ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتحيير . وهذه صورة موفقة لم يقع عليها الشعراء المشهورون .

وخلاصة القول في هؤلاء الوصافين أنهم اتفقوا في رحيل القطان عن الأوطان ، واتفقوا في الحيوان الذى حل بالمكان ، ولكنهم اختلفوا في رسم الأرض وقد تناوبت عليها الرياح والأمطار ، فأصبحت في نظر بعضهم كباقى ظاهر الوشم في اليد أو اختلاط الأصباغ بالأصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم

ذكر حياة الأحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الأثاث ومراكض
الحب ومرايح الحب .

الصحراء

رأى الأعشى أن الصحراء أشبه بظهر الترس في استوائها ، وأنها مقفرة
موحشة فما يسكنها إلا الجحش يمرحون فيها ويصخبون خلال الليل حين يلف السكون
عالم الصحراء ويخيم الظلام ، فهي وطنهم ومرتعهم ومحل عبثهم ودنياهم . فإذا
أشرق النهار وعمت الشمس بعد ذلك أرجاء الكون اشتد القيظ والهجير
فما يطيقه إلا الفرسان الشجعان والأبطال الغطاريف ، فهم يقطعون الصحراء
ويقتحمون الأهوال والمخاطر .

والمرقش الأكبر يصفها سوداء لبعدها بالنبات وحرمانها من الماء ، فالإبل
تسير في ضنك وإرهاق متعبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم النعاس لخمود
الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام .

وسويد بن أبي كاهل ، يصف الفلاة كأنها رأس أصلع فيه بقايا من
الشعر ، ويرسم السراب يسبح في البیداء ويرقص على الجبال فهي مخوفة هائلة .

الليل

تخيل امرؤ القيس أن الليل حين يرخى ستائره على الكون شبيه بالبحر
حين يغمر السابحين ، وأن نجومه المتلألئة كأنها مربوطة بأمراس شديدة الفتل إلى
رأس جبل لا تريم ولا تتحرك ، ثابتة ، ثقيلة الوطاء على الساهر الحزون . والشاعر
يجد في الليل موضعاً للفخر ، كأن الليل يبلو قوته وشجاعته .

والنابغة الذبياني ، يحسب الليل أدياً لبطئه وطوله ، كأنه مقيم لا يرتحل ،
أو كأن الراعي الذي يسوق النجوم إلى غايتها قد نسي قطيعه وسافر فما يعود ! .

ومهلهل بن ربيعة ، أصابه الهم فطال سهره ، وجفاه النوم ، فكان النجوم واقفة ، أو كأن كوكب الجوزاء كنياف تجمعت حول وليدها وفصيلها المكسور فلا تبرح مكانها ، أو كأن الفرقدين يدا رجل مقامر بغيص لا تقفان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه .

وهؤلاء الشعراء اتفقوا في أن النجوم ثابتة بطيئة أبدية لا تتحرك ، ولكن أحدهم شبهها مربوطة بالجل ، وآخر جعلها كالقطيع نسيه صاحبه ، والثالث شبهها بالنياف المتجمعة النائحة أو المقامر المأخوذ باللعب .

السحاب والمطر

ويرى امرؤ القيس أن المطر حين ينسكب يملأ الأرض ويغمرها فيخفى أوتاد الخيم ويغطي الأشجار فما تبدو منها إلا رء وسها يعلوها الزبد ، فيخيل إلى الرأي أنها رعوس مفصولة عن أعناقها تسبح في الماء . ووصف الأعشى البرق يلتمع ثم يخبو ، فرأى أنه كشعلة تومض وتنطفئ أو شرارة تبدو وتختفي ، والسحاب العارض ظلمات متراكمة تسح وتنسكب فتملاً المياه كل مكان ، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية والكثبان المنتشرة .

وأما عبيد بن الأبرص ، فيرى أن البرق يضئ كالصبح في لمعانه ، وأن السحاب يدنو من الأرض حتى ليحسب الإنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كمضى الصبح لمأح^(١)
دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح^(٢)
وليس في هذه الصور للسحاب والمطر كبير غناء إذا استثنينا وصف امرئ القيس

(١) العارض : السحاب الذي يعترض في الأفق - لمأح : لماع .

(٢) دان : قريب - مسف : مار على وجه الأرض - هيدبه : خيوطه - الراح : الكف .

للرؤوس المفصولة ، فكلها تشير إلى هذا السيل المتدفق الذى يغمر الأرض
ويملاً الأمكنة . (وقد وصف الجاهليون ما يصيبهم من برد أو حر ، ورسموا أثر
الأمطار فى الرياض حتى يضحك الزهر وينبع الثمر ويفوح العطر ويغرد الذباب ،
وعنترة العبسى يشبه الذباب بالشارب التمل حين يتغنى فى سروره ومرحه .)

وخلاصة القول فى شعر الوصف عند الجاهليين أنه قائم يصور حياتهم
الحزينة ورسومهم الكثيبة وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وحين تصيبهم
الأمطار تكسب السماء عبوساً والبيوت اضطراباً . وذلك لاضطراب عيشهم وشدة
تنقلهم وضربهم فى أطراف الأرض وراء الرزق ، فلا قرار ولا هدوء كأنهم
يكتنون بالشمس ويرزعون بالرمل والأنواء فتغدو حياتهم كالجحيم ، ولذلك
كانوا يحلمون بالنعيم وبالجنان ، وبالهدهود والشراب السائغ والوسائد الناعمة ونوم
الضحى ، ويرون فيها مثلاً أعلى لآمالهم .

الفصل الثالث

العصر الجاهلي

وصف الخمر والسقاة

الأعشى — عمرو بن كلثوم — علقمة — الأسود النهشلي — عدى بن زيد

رأينا أن العربي كان في حياته الجاهلية على صراع دائم ونضال مستمر ،
طوراً يقف للطبيعة القاسية ، وطوراً للعدو الغازي والمحارب المنتقم ، فكان أيامه كما
يصورها شعر الجاهليين كانت حزينة في أكثر الأحيان . ولا بد لدفع هذا الحزن
في نظره من شراب ينسيه وخمر تعزیه فيسلو الآلام وينتعش للآمال . ولعله
شرب الخمر ليستقبل الموت أو يستلهم النشاط ، فهو يعتقد أن العمر قصير وأن
الفناء قريب منه يفجؤه في كل حين ؛ تعدو عليه الطبيعة أو يسطو عليه العدو .
ولسنا نملك التحقيق في أولية الشعر الجاهلي أو صحته لنعرف أول من شرب
وأول من وصف الشرب ، ولكننا نستطيع أن نقبل أن الشعر الذي بلغ إلينا يمثل
ما قاله الشعراء الجاهليون في مبادئه وأسسـه — كما يقول العلماء اليوم — فنتخذنه
وسيلة إلى دراسة هذا الوصف في الخمر والسقاة ، كما اتخذنا وصف الحيوان والطبيعة .
وقد أتانا أن أحسن الوصافين للخمر في الجاهلية هو الأعشى وأنه كان
زعيم المدمنين وسيد الشاربين ، أطال صحة الشراب وعرف ما يتقلب عليه من
ألوان وصفات ، فجاء بصورة جميلة كانت موضع التقدير والتقليد خلال عصورنا
الأدبية كلها في قصيدته المشهورة :

- فقمننا ولما يصبح ديكنا إلى جونة عند حدادها (١)
 تنخلها من بكار القطاف أزيرق آمن أكسادها (٢)
 فقلنا له : هذه هاتها بأدماء في حبل مقتادها (٣)
 فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها (٤)
 كميتاً تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها (٥)
 فجال علينا بأبريقه مخضب كفّ بفرصادها (٦)

فهو سينطلق قبل أن يصحو النيام ويصبح الديك مؤذناً بالفجر ، ويقصد خابية مترعة يحفظها خمار حريص تخير كرمها ، وجناها رجل روى خبير بصناعته مطمئن إلى بيعها ورواجها ، فيطلب إليه أن يترع الأباريق وأن يدفع له ثمنها ناقة أدماء ، فقام الخمار وصب قهوة تهدئ النفوس بعد ثورتها ، فكانت في لون الحمرة القانية حين تصفو رغوتها ويزول زبدها . وجال بها الساق فطاف علينا بكؤوسه وهو مخضب الكف ، فشربنا حتى خارت القوى وسكن الجسم .
 ويقص الأعشى بعدها ما وقع لزميله من شدة الشرب خلال النهار كله ووهناً من الليل ، في أسلوب رقيق ومشاهد متعاقبة حية ، تنبض بالنشاط وتضج بالحركة ، وقد نقل إلينا ما دار من حوار خلال ذلك :

- (١) ديكنا : ديك الفجر - الجونة : الخابية المطلية التي توضع فيها الحمر - حدادها : خمارها ، سمي كذلك لحفظه إياها .
 (٢) تنخلها : تخيرها - بكار القطاف - مباركة القطف والحنى - أزيرق : تصغير أزرق وهو صاحبها ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين - إكسادها : بوارها .
 (٣) أدماء : ناقة يخالط بياضها سمره - مقتادها : صاحب قيادها .
 (٤) قهوة : خمر - تسكننا : تهدئنا - إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .
 (٥) كميت : خمر يغطي حمرتها سواد - صرحت : صفت - إزبادها : فورانها وانتشار الحبب فوقها .
 (٦) مخضب كف : مصبوغ الكف بخضاب الحناء - فرصاد : صبغ أحمر ، ويطلق على التوت الأحمر .

- فقال : تزيدوننى تسعة وليست بعدل لأندادها (١)
 فقلت : لمنصفنا : أعطه فلما رأى حرص شهادها (٢)
 أضاء مظلة بالسر ج ، والليل غامر جدادها (٣)

وهذا وصف لطيف للشرب فى البادية ، وأحاديث تقع خلال ذلك على الزمن ، سبق إليها الأعشى والفضل للمتقدم .

وأما خمر عمرو بن كلثوم فهى صفراء من خمر « أندرين » مزجت بالماء الحار كما يفعل الروم فى بلدهم ، فأنعشت الشارب ورققت الطباع وأحالت الرجل الضيق سمحاً ليناً ، والرجل الشحيح سخيماً كريماً :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا (٤)

وعلقمة الفحل ، يطلبها معتقة معصورة من العنب كغيره ، ولكنه يجد أنها تشفى الصداع وتزيل الدوار ، ولا يصيب الرأس منها وجع ، ذلك لأنها من « عانة » قد لبثت فى دنيا سنة كاملة . وساقى علقمة روى كذلك يغطى فمه عند السق بشيء من الكتان على عادة الأعاجم ، وأما إبريقه فيشبه ظبياً وقف على محل مرتفع قد لف بالكتان وكسر أنفه .

وقد أضاف الشاعر بهذا صورة للروم السقاة حين يغطون أفواههم بالكتان ولعل ذلك لئلا يشاركوا الشرب فى استنشاق عيبرها أو يفسدوا رائحتها بأنفاسهم ، كما يفعل الأطباء اليوم عند ما يحذرون خطر أنفاسهم على المريض ، فالخمر دواء فى رأى هؤلاء الشعراء ، يتناولوه المرضى فى سبيل الصحة والقوة والعافية ، وليس للساقى أن يفسد الدواء :

(١) أى تسعة أبريق - عدل : معادلة - أنداد : نظراء .

(٢) المنصف : الساقى والخادم .

(٣) مظلة : خيمة - غامر : شامل - الجداد : الأهداب .

(٤) تجور : تميل - ذو اللبانة : صاحب الحاجة .

تشفى الصداع ولا يؤذيكَ صالِها ولا يخالطها في الرأس تدويم ^(١)
والأسود بن يعفر النهشلي ، يصف السلافة وقد مزجت بماء الأمطار
ويصور الساق ، يلبس في خصره منطقة ، ويحمل في أذنيه أقراطاً . وفي صوته
غنة جميلة ، وفي أنامله حمرة الفرصاد . ثم يرسم المجلس وقد طافت بالشرب غايات
كالدمى من رخام في جملهن أو كالبدن في بياضهن ، ناعم يمشن بالأقداح الجميلة
فيرمين القلوب بالحاجر ، ويسقين بأحاديثهن وأقوالهن فيسكر القوم بخمر العيون
وخمر الكؤوس وفتنة الأحاديث .

وهذا مجلس من مجالس الشراب لا يبذه مجلس للعباسيين ، ففيه ساق
جميل وفتيات ناعم سواحر . ولعل هذا هو الذي أذهل الشاعر عن وصف
الخمر وعتيقها وجمال الكأس وصورتها وحوار الشرب وأحاديثهم ، فكأن السكر
يكون بالعيون والألفاظ لا بالكؤوس والشراب .

وعدى بن زيد ، أقبل على الشراب كذلك ووصفه ، فصور الساقية قيمة
في يمينها إبريق الخمر قد صفته بالمصفاة ، ثم وصف الخمر سلافاً كعين الديك
فزجه بالماء ولد طعمه ، ونظر إليه وقد علت سطحه فقاقع حمراء كالياقوت
فأحبه ، ووصفه بأسلوب لطيف قال فيه :

بكر العاذلون في وضح الصب ح يقولون لى : أما تستفيق ؟
ودعوا بالصباح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريق ^(٢)
قدمته على عقار كعين الد يك صنى سلافها الراوق ^(٣)
مرة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يدوق

(١) الصداع والصاب : وجع الرأس - التدويم : الدوران .

(٢) الصباح : الخمر تشرب فى الصباح .

(٣) قدمته : صفته بالقدم وهو مصفاة توضع فوق الإناء ليصفى ما فيه - العقار : الخمر -

السلاف : خالص الشراب وأوله - الراوق : المصفاة .

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزيناها التصفيق (١)

ثم كان المزاج ماء سحاب لا صدى آجن ولا مطروق (٢)

وهكذا شرب الجاهليون خمرهم في الصباح عند الفجر ، واختاروا الحمرة لوناً لها ، وأحبوها معتقة ، وفضلوا أن يكون الساقى جميلاً في وجهه عذباً في صوته ، وأن يكون على لباس خاص ، وأن تحيط الغانيات بمجلس الشراب . وبذلك عرفنا ما كانوا يرغبون من لونها وتصفيقها ، وما كانوا يحبون من جنسية ساقيا ولباسه ، وشهدنا من عاداتهم في تقليد الفرس والروم في ذلك ، وأنها تكلفهم ثمناً غالياً ، فلعلمها وسيلة للمدح والفخر والاعتزاز للثراء والنبيل والفتوة . ولا بد كذلك أن يكون في الشعراء من لم يستطع الإكثار منها ولكنه جارى غيره في وصفها وأسهم في نعتها ، ليقال فيه ما يقال في السرى النبيل ، وشأنهم في ذلك شأن من يقول في الغزل وهو لا يشعر بالحب ولا يكتوى بالبعد .

(١) التصفيق : نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصفو .

(٢) صدى : متغير - آجن : راكد وفاسد - مطروق : مباح للناس .

افصل الرابع

العصر الجاهلي

وصف السلاح والحرب

الرمح - السيف - القوس - الدرع - المعركة

السلاح

لا بد من السلاح في حياة البادية ، فهي غزو أو صيد ، يدافع به العربي عن نفسه ضد عدوه من الإنسان أو الحيوان . وكان هذا السلاح معدوداً ينحصر في السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبل ؛ وهي من حديد أو شجر . وقد تعاقب الشعراء على وصفها واعتزوا بها ، فهي عدة الشجاعة والفخر ، ووسيلة المديح والقوة . وقد عني العرب بها عناية عظيمة فأطلقوا عليها الأسماء وأكثروا في ذلك ، حتى كانت لهم فيها كتب كثيرة تضم ثروة عظيمة من مفردات ، وكان من وراء هذه الكتب معاجم غنية واسعة .

وأوس بن حجر ، هو أحسن الشعراء وصفاً لها فيما ترى كتب الأدب ، فقد انصرف إلى الشجاعة والبطولة ، ورسم سلاحه كله في قصيدة طويلة ، سنعرض لمعانيها في شيء من الإيجاز لنبلغ أولى صوره ورسومه قال :

لقد أعددت للحرب بعد ما كشر نابها رمحاً صلباً كأن كعوبه نوى التمر في

النعومة والملاسة صنعتته رديئة فأحسنّت صنعاً ، فهو يلتمع في نصله كما يضيء مصباح الملوّك في يوم عيد .

وأعددت درعاً ملساء أنفق ناصبها عاماً كاملاً في صنعها ، تشبه الغدير في تواجده حين تعبث به الريح ويداعبه النسيم ، فتلتمع كأن أشعة الشمس قد صادفت مستشرفاً من نبت صغير منفرد .

وأعددت كذلك سيفاً مهنداً كأن حده برق تلاًلاً في وسط سحاب ، إذا سل من غمده اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب وقد صنع من بلجين ، فكأنه في التماح صفحتيه ديبب نمل صاعد وآخر نازل .

وجهازت قوساً صنعت من فرع شجرة نبتت في جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر ، قطفه صاحبه في عناء كبير ، وخاطر في سبيل الوصول إليه ، لأنه من العود النادر في صلابته ومنعته ، فإذا بلغه قطفه ، وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه فصقلها وجردّها صفراء لا يعيبها قصر ولا طول . فإذا تناول الراعي هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتاً حنوناً ، وإذا شد السهم ذهبت بعيداً .

والكنانة التي أعدها ، حشاها بالسهم من فروع الأشجار الغريبة ، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا في صقلها ، فركبت فيها النصال حمراً كجمر الغضا في يوم ريح ، فلما تمت كساهن ريشاً من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد .

هذه عدة الشاعر : رمح ودرع وسيف وقوس وكنانة ، وصفها الشاعر في قصيدة واحدة وصفاً دقيقاً ، وذكر منبتها ومنشأها وقصة صنعها وأوغل في التفصيل حتى لم يترك قولاً لقائل . وقد أسهب في قوسه فخصها بثمانية عشر بيتاً لأنها كانت أحب سلاحه إليه .

والشماخ بن ضرار وصف قوسه وخص بها كثيراً من الأبيات ، قص فيها ما قام به القواس في تحسس الأشجار والبحث عن صلابتها ومتانتها والتعرف إلى

جذرها حتى إذا وقع على ضالته تناولها بالفأس ، ولبت عامين كاملين يثقفها ويقومها ؛ فإذا جاء الموسم أقبل بقوسه فخوراً مزهواً فباعها وهو داعم العين ، وأما الشاري فقد اختبرها فرأى أن وترها يترنم كترنم الشكلى ، وأنها تصوت حين يخرق سهمها جسد الظبي ، فلا مهرب له منها ولا تنجيه قوائمه من سلطانها .

والشماخ مثل أوس فى معانى قوسه ، اختار الشجر واصطفى القاطف ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيلها . وقد سار كثير من الشعراء الجاهليين على سنن أوس ، فجمع راشد اليشكرى فى قصيدته وصف السيف المشرفى القاطع ، والقوس ذى الصوت الحنون ، والرمح الأسمر الصلب ، والدرع المضاعفة النسج ، وفعل مثله ثعلبة العبدى فجمع فى قصيدته وصف الدرع والرمح والقوس والسيف .

الحرب :

وكثرت الحرب بين العرب فاعتبروها وسيلة من وسائل الرزق فيها الغارة والسلب والثأر ، بل فخروا بها وتمدحوا بشجاعتهم فيها ، فهى شارة القوة ودليل البأس ، وقد خلق الرجال لحوض غمارها ، فكانت تأكل منهم وتهب من قوتهم وتضعف من نسلهم ، ولذلك سعوا إلى كثرة الأولاد ليعوضوا على القبيلة شبانها وفرسانها ، وهكذا شغلت شعراءهم فوصفوها ورسوموا ما دار فيها من طعان ونزال ، وصوروا الخيول والأسلحة وما يقع من أصوات خلال المعركة ، وما تنتج من ضحايا ، ونظر كل منهم إليها نظرة خاصة .

وتروى كتب الأدب أن دريد بن الصمة أكثر الفرسان غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً ، وقد قتل يوم حنين ، فعاش فارساً ومات فارساً ، وقد وصفها وهو يحامى عن أخيه عبد الله قال : أقبلتُ على أخى والرماح تنوشه من كل حذب كما تقع الشوكات فى الثوب المنسوج ، فكنتُ كالناقة تقبل على ولدها الذبيح تشمه ، وتتحسس . فلما دخلتُ الميدان تناولتنى الرماح وشققت جلدى ، ولكنى صابرتُ وطاعنت الخيل عن جثته حتى تفرقت جموعهم ، والمرء لا بد فان ، فعلام الخوف ؟

فطاعنتُ عنه الخيل حتى تنفست وحتى علانى حالك اللون أسود^(١)
 قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد^(٢)
 وهكذا وصف غبار المعركة حوله وصور الخيل متألبة عليه ولكنه ناضل حتى
 انتصر .

واشتهر عنتره العبسى فى أساطير البطولة حتى ألصق به شعر كثير ، وقد
 نقل إلينا فى ديوانه أنه وصف فرقة كثيفة هاجم بها فرقة أخرى ، وصور الرماح
 المتساقطة والقلنا المتهاوية كأنها شهب تتساقط فتنبير الظلام ، والخيل الضوامر تعدو
 عوابس بفوارسها المدججة بالسلاح ، وقد خف الحلم وثبت الفرسان للنزال .
 ونقل إلينا فى شعره كذلك أنه حمل بمهره على قلب الكتيبة المعادية فزقها ،
 وما زال يناضل حتى اصطبغت الخيول الدهم بالحمرة من دماء الفرسان ، وكأنها
 تتعثر فى مستنقعات الدماء ، وعاد منتصراً يحمل رأس عظيم الكتيبة ، وخلف
 الأعداء كالنياق المذبوحة طعمة للجوارح :

حتى رأيت الخيل بعد سوادها خمر الجلود خضبن من جرحاها
 يعثرن فى نقع النجيع جوافلاً ويطنان ، من حمى الوغى صرعاها^(٣)
 فرجعتُ محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها^(٤)
 وقد صور شعراء آخرون حروبهم ضد القبائل ، فرسموا قوة الخيل وسرعة عدوها
 حتى لكانها تبارى الحمر الوحشية وتقتحم الهبيعاء ، وحتى كأن أسنتها حبال^{*}
 يمتح بها ماء البئر لشدة طولها وإدراكها الغاية . وصور بعضهم الحرب كزهير بن
 أبى سلمى فى سوءاتها وويلاتها ، فهى كرية ، وهى كالنار تأتى على المشيم ، وهى

(١) تنفست : تفرقت - حالك اللون : يقصد به الغبار الكثيف من وقع الحوافر حوله .

(٢) آسى : سوى - مخلد : خالد .

(٣) النجيع : الدم الأسود المتجمد - حمى الوغى : شدة الحرب .

(٤) جزر : ج جزور ، وهى الناقة تجزر - ناواها : ناوأها وعادها .

كالرحى تطحن كل شيء ، وكالناقاة تلد أشأم الغلمان . وجعلها امرؤ القيس عجزواً ليس لها خليل ، وشمطاء دميمة قبيحة قد جرت شعرها وتنكرت فهي بغیضة لا يقربها لاثم أو محب .

وكثيرة هي أشعار العرب في الحروب ، وصل إلينا بعضها ، وضاع كثير منها مثل : حرب داحس والغبراء ، والبسوس . والذي بقي يدل على ما ضاع ، فقد انتثر في معلقات الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وقصائد الأخنس التغلبي والحارث المري وعامر بن الطفيل ؛ وملاً صفحات التاريخ والأدب ؛ وهو سفر ضخم في البطولة لو سعينا إلى تحقيقه وجلاته ودراسته لكانت لنا صور تبذ الملاحم اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، كالإلياذة والإنيادة والشاهنامه والمهابهارتا في دقة الوصف وعمق الخيال .

وكلها تصور هذه الحياة الحزينة المشابهة من غير تكلف أو صنعة ، فإذا ابتسمت حيناً كانت صورة الأمل الذي خالج قلب الشاعر ، وبارقة الحلم التي راودت خياله إلى حين .

إفصل الخامس

الوصف في العصر الأموي

الأخطل - الفرزدق - جرير - العجاج -

رؤبة بن العجاج - الراعي - ذو الرمة

دخل العرب في طور جديد حين ظهر الإسلام، فأصبحوا يقاتلون من أجل الدين في جيوش كبيرة، وكانت لهم وقائع ومعارك ضاعت أوصافها أو وقفوا دون رسمها لحدة الموضوع وخطورة المقال، فنحن لم نقع على شيء فيها فحرمنا هذه الثروة. ولما كان عصر بني أمية ظهر الشعراء في العراق وانتقلوا إلى الشام، ولكنهم ظلوا على الأوصاف القديمة الجاهلية، فركب الأخطل ناقته وشبهها بالثور الوحشي أو بحمار الوحش، ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما فعل الجاهليون قبله، لذلك ألحقه بعض النقاد بالشعراء في الجاهلية.

وجمد الفرزدق عند القديم البدوي من الألفاظ والصور، فوقف على الأطلال

كما وقف امرؤ القيس حتى لكانه سرق عباراته حين يقول :

وقوفاً بها صحبي على وإنما عرفتُ رسوم الدار بعد توهم

يقولون: لا تهلك أسي ولقد بدت لهم عبارات المستهام المتيم

فقلت لهم : لا تعدلوني فإنها منازل كانت من نوار بمعلم

فهو لا يحس إحساس القدماء ولكنه يقلدهم في قصيدهم ويتصنع الشوق إلى

ديار الأحبة، على أنه في مفرداته يبدو أقل غرابة وأخف إمعاناً في القديم منهم،

فقد وصف الذئب وقال :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا
تلمسنا حتى أتاننا ولم يزل
ولو أنه إذ جاءنا كان دائماً
ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا
فقاسمته نصفين بينى وبينه
بقية زادى ، والركائب نعس

ونحن حين نوازن بين هذا وبين ما قاله المرقش الأكبر نجده يحذو حذوه
ويتبع خطوه ، فذاك يوقد النار ويشوى للذئب ، وهذا يقاسمه الزاد . على أن
المرقش وصف الذئب بعدها فرحاً جذلان يهز رأسه غبطة لهذا الذى أصابه ،
والفرزدق يجد فيه وسيلة لامتداح كرمه فحسب ، لا يلم بالذئب إلا فى قوله :
ممشوق الذراعين أطلس ، ولا يرهبنا وصفه له ، كأنه كلب أو قط أو أى حيوان
آخر . وحين نفقه إلى جانب الشنفرى نجد الشاعر الجاهلى قد وصف الذئب
فأدخل الرعب فى قلوبنا ، وصور اللون والملامح والقسمات ، ولم يدعه إليه ولم
يقاسمه زاده .

والفرزدق وصف الذئب ثانية فقاسمه الزاد ووقف منه موقف الحذر ،
وعاهده عهداً لا يخونه ، ونحب أن نرى هذه الأبيات شاهداً على الوصف عنده :
وأطلس عسال وما كان صاحباً
فلما دنا قلت : ادن دونك إننى
فبت أسوى الزاد بينى وبينه
فقلت له لما تكشر ضاحكاً
تعش فإن واثقتنى لا تخوننى
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كتما
ولو غيرنا نبت تلمس القرى
دعوت بنارى موهنأ فأتانى
وإياك فى زادى لمشتركان
على ضوء نار مرة ودخان
وقائم سيني من يدي بمكان :
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
أخين كانا أرضعنا بلبان
أثاك بسهم أو شبابة سنان
والغريب أن الفرزدق وضع فى لفظه وابتعد عن الإغراب فى مفرداته ، وهو

يقص حكاية الذئب ، وأعل ذلك كل ما يحمد له هؤلاء النقاد الذين يريدون سهولة التعبير في العصر الأموي ، ولكنهم معنا في أنه لم يصنع شيئاً في الوصف كما صنع الأجداد .

وجريز بن عطية ، لا يختلف عن زميله في الوصف ، فقد وقف كذلك على الأطلال ، ووصف رحيل الأحبة وبكى الظعن ، ولكنه كان صورة للقدماء . ويفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا في الشعر الجاهلي تمثيلاً لماضيهم فأصبحوا يعتزون به ويشتدون في روايته ومن ثم يسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هي التي ساقط إليهم النصر وملكهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضي الجاهلي وعناية الخلفاء به وحبهم له ، فجهد الشعراء الأمويون في أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبي ، ومن ثم كان الجُمود والوقوف عند معاني الجاهليين حيناً ، والتمسك بالفاظهم حيناً آخر ، فعادت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء في هذا العصر .

وسواء أصحت نظرية النقاد أم كانت فرضية تحتل النقد ، فإننا نرى طبقة من الشعراء في هذا العصر عادت إلى القديم وتغنت بشعره ، وزادت عليه في غريب المفردات ، ونقصد بهذه الطبقة العجاج وابنه رؤبة في الرجز ، وراعى الإبل وذا الرمة في القصيد .

أما عبد الله بن رؤبة التميمي البصري ، المعروف بالعجاج ، فقد وصف الأطلال في أراجيزه ، وصور الحياة البدوية كما صورها القدماء ، فرسم الصحراء وسرابها وغيثها وبرقها وحيوانها ، وعرض للفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والخنزير والأسد والنسر والجراد والذباب والبعوض . . .

وهذه الأراجيز شديدة الأسر في مفرداتها ، تغوص على الغريب حتى نخيل إينا

أن الشاعر لم يغادر في معاجم اللغة قافية إلا صادها . وأما معانيها فقديمة تقوم على التشخيص والتمثيل الحسى ، تتأثر امرأ القيس والمهلhel سواء في وصف الليل وأهواله أم في رسم الناقة وحمار الوحش وثور الوحش . والجديد فيها أنها أوردت المشتقات والجموع ومشاكله الألفاظ ، كأن الرجل صنعها للغة لا للشعر ، أكثره الإغراب فيها ، والتكلف في سبكها والتصنع في رصفها .

وابنه رؤبة بن العجاج ، سار بهذه الأراجيز سيرة أبيه حتى لقد بلغ بعضها أربعمئة قافية ، جعلها لأبواب الشعر كلها حتى مديح الخلفاء العباسيين ، فزج بين الموضوعات ووازن بين الأشخاص والأنهار ، وفضل الممدوح على البحر أو النهر ، ووصف البادية في سراها ومفازتها ، وأطال فيها حتى هام بها اللغويون ، ففيها كل ما يريدون من غريب الأفعال والأسماء والمصادر . وهى على هذا تضم صوراً بارعة في وصف الموضوعات ، لكن الوصول إلى معانيها يقتضى نبش المعاجم وفهم الصور . ولهذا أحبها الخلفاء وقربوا الشعراء لإجادتهم في سبكها إحياء لماضى اللغة ومعانيها . وسرى أن الشعراء هاموا بها حتى في العصور العباسية فسعوا إلى تقليدها وضربوا في ذلك بسهم كبير ، كأبي نواس وابن المعتز وأبي فراس الحمداني .

وأبو مرقال الزبيان ، فعل ما فعله العجاج وابنه رؤبة ، ولكنه كان أسهل لفظاً ، وأقل إغراباً ، على أنه لم يصنع جديداً مبتكراً في المعانى البدوية القديمة ، ولا نحب أن نروى من هذا الرجز ، فهو يحوجنا إلى شرح وعناء ، نحن عنه في غناء لضيق الصفحات ، وإنما نحيل إلى « مجموع أشعار العرب » ، وقد طبعه في صدر هذا القرن المستشرق أهلمورت ، ففيه شفاء الغليل .

وأما راعى الإبل عميد بن حصين النخري ، فقد ظعن إلى البادية ووصف لإبل بأساليب القدماء ، ورسم حياة الرعاة ، فسنى بالراعى . وكان تصويره للإبل شبيهاً بصنيع القدماء في ضخامتها وقوتها ، ولكنه أضاف إليها وصف الحادى والراعى

وتأليف القطيع . وعهدنا بالجاهليين أنهم يصفون الناقة بمفردها تسير ، فيشبهونها بحيوان الوحش ، ولكن الشاعر صور عادات البدو في نحر الإبل والشجاعة تصويراً يخيل معه إلى السامع أن الشاعر مفتون بها كما فُتن الغزلون بمعشوقاتهم ؛ وهو مع هذا لم يخل من إغراب في اللفظ دفع اللغويين إلى جمع شعره والعناية به والتعلق بمفرداته .

والشاعر ذو الرمة هو الذى حمل لواء البادية كما قالوا ، فاتجه إلى وصف الإبل وعاج حيناً على أوصاف القدماء في رسمها كامرئ القيس وعنترة وزهير ، ثم برع في وصف الطبيعة وألوانها ، فعمد إلى الدمن والأطلال والرياح والأمطار ، وهو حين يصف ناقته في قصيدته المشهورة « ما بال عينك منها الماء ينسكب » يجعلها هزيلة تشكو الضعف والمرض والأوجاع ، ولكنها تسبق الإبل ولا يصيبها وفي ولا تعب ، وإنما تجرى كالريح العاتية وتثب كما يثب حمار الوحش حين يعدو كالجنون أو الهارب بالإبل حين الغارة لعله يبلغ العين . فإذا بلغها وصف الضفادع والحيتان والصيد والصقر والخياري والحمار الوحشي والثور والظليم .

هذا كله في قصيدة واحدة ما نرى لها شبيهاً في أدبنا العربي قد جمعت أوصاف الحيوان وأنماط التشبيهات ، فكأنها متحف يغص بهذه الألوان الحية ، وقد أعجب بها الشعراء منذ القديم فتدنى جرير أن تنسب إليه ! ذلك لأنها مقسمة مرتبة مهذبة . وأكثر معانيها صورة للشعر الجاهلي ، لكنه نظمها من جديد وأجاد في عرضها لتشمل شعر الطبيعة كله ، لعلها تغنى عن الدواوين مجتمعة ، ولا تغنى كلها عنها . فهو حامل لواء الوصف في العصر الأموي ، وقد قال فيه ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء » .

افصل السادس

العصر العباسي

وصف الحيوان

النياق - الخيل - الأسد - الذئب - النحل - الكلب - الديك - الفهد -
الصقور - السمك - البعوض - الطير - الهر والجردان .

انتقل الحكم من دمشق إلى بغداد فاشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتماثيل الأعجمية ، واصطبغت الطبقات الرفيعة في الشعب بصباغ الحياة الجديدة ، وكان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد فحسب ، أولاً أن تياراً معاكساً راح ينحو نحو القديم يدفعه الحنين إلى أمجاد العرب وأغنيهم ومغانيهم القديمة ، فظهر في الأدب أنصار لهؤلاء وهؤلاء ، ودخل الوصف في معجمان هذه المعركة بين القديم والجديد .

والواقع أن الشعراء أخذوا بالقديم والجديد معاً كأنهم يسعون إلى إرضاء الطائفتين ، فظفروا في بعض الأبواب يقلدون ، وراحوا في بعضها يجددون ، بل هم حاولوا محاولات بارعة فأخفقوا حيناً وانتصروا حيناً . وسنعرض لوصف الحيوان عندهم لعلنا ننتهي إلى الموازنة بينه وبين ما كان عليه في الشعر الجاهلي والأموي .

النياق

وقد رأينا وصف النياق والإبل والخيل على ألسنة الجاهليين والإسلاميين ،

يصفها الشعراء ، لأنهم عاشوا على مقربة من البادية ، ولأنهم أرادوا أن يشاركوا في وصفها أو يبعثوا الحنين إلى ذكرها . فقال أبونواس يصف ناقته :

ولقد تجوبُ بي الفلاة إذا صام النهارُ وقالت العُقمُ^(١)
شذنية رعت الحمى فأنت ملء الحزام كأنه قصر^(٢)
تثنى على الحاذين ذا خصل تعماله الشولان والخطر^(٣)
أما إذا رفعتهُ سامدةً فتقول : رنق فوقها نسر^(٤)
أما إذا وضعته عارضة فتقول : أرخى خلفها ستر^(٥)
وتسفّ أحياناً فتحسبها مترسماً يقتاده أثر^(٥)

فهذه الناقة تجوب به الفلاة في الظهيرة وقد اعتدل النهار واستراحت
الظباء في القيلولة ، وهي قوية متينة ، تحرك ذنبها فتصيب فخذيهما ، فكأنه نسر
إذا رفعتة جادة في السير ، أو كأنه ستر إذا أرخته . وتدنو من الأرض فكأنها
تبحث في الرسوم عن أثر . وناقة أبي نواس هذه كناقاة الجاهليين في ضخامتها
وطول ذنبها وقوتها ، وفي غرابة مفرداتها ، ولو تركت من غير نسبة إلى شاعر
معين لذهب الظن إلى أنها قيلت في العصر الجاهلي أو الإسلامي .

ووصف مسلم بن الوليد ناقته سريعة قوية تضرب بذنبها يميناً وشمالاً ،
وتسرع في إراقها ووخدها . ووصفها ابن المعتز فرأى فيها ما يرى الجاهليون فقال :
رأيتُ انهمار الدرّ بين فروجها كما عصرت أيدى الغواسل أثوابا
كانّ على حلابهنّ سخائباً تجود من الأخلاف سخاءً وتسكبا

(١) صام النهار : اعتدل - قالت : استراحت - العفر : الظباء .

(٢) شذنية : منسوبة إلى شذن : فحل باليمن أو موضع فيه - الحمى : موضع الكلاء .

(٣) الحاذين : تشنية حاذ ، وهو جانب الفخذ - الشولان : رفع الناقة ذنبها - الخطر :
رفعها إياه مرة بعد أخرى وضربها به حاذيها .

(٤) سامدة : جادة في سيرها - رنق : حام ورفرف للوقوع .

(٥) تسفّ : تدنو من الأرض - المترسم : الناظر إلى رسوم الدار .

خوازن نحض في الجلود كأنما تحمل كثناناً من الرمل أصلاباً
فهي قوية ضخمة يسيل الدرّ بين فروجها كما يسيل الماء من الثوب على
أيدى الغواسل ، وهي مكتنزة اللحم . كأنّ في الجلد كثناناً من الرمل ، وقد يما
أحبّ العرب النياق الضخمة المكتنزة .

ووصفها في موضع آخر فأعاد معاني القدماء وصورهم قال :

حتى طويت على أحشاه ناجية كأنما خلقها تشييد بنيان
كأن أخفافها والسير ينقلها دلاءُ برّ تدلت بين أشطان
لها زمام إذا أبصرت جولته حسبتُ في قبضتي أثناء ثعبان
إلى هلال تجلت عنه ليلته باريه صورهُ في خلق إنسان
فجعلها ترتع في مفازة بعيدة ، وهي وثيقة التكوين ضخمة الجسم كأنها
بنيان مشيد ، وكأن أخفافها دلاء برّ تدلت بين الحبال . وهذه الصور جاهلية
صرف تعلق بها ابن المعتز فكان شديد الشبه بالأجداد ، وكان شبيهاً بزملائه في
العصر العباسي إذ لم يخرجوا عن حدود القدماء في وصف الناقة .

الخيل

وصف العباسيون الخيل فأوغلوا في رسمها كذلك ، وأبو نواس جعلها مطية
إلى الصيد ليس غير . وأما أبو تمام فقد أكثر من وصفها فجعلها شديدة
الحركة والطيش كأنما خالطها مسٌّ من جنون ، أو كأنها شربت خمراً فهي سكرى :
كأنما خامره أولقٌ أو غازلت هامته الخندريس (١) .
عوّذه الحاسد بخلاّبه ورفرت خوفاً عليه النفوس
فهو يحبه ويعوّذه خوف الحسد ، ويرى أن النفوس تميل إليه لحماله . ورسم
في مكان آخر اختيال الفرس وجعله ملآن بالصلف والكبر ، ووصف حوافره

(١) أولق : جنون - الخندريس : الخمر العتيقة .

وصلبه وناصيته . ولوّنه بالحمرة قد بدا فيها الشيب ، وهو طائش مجنون نشيط ،
وبعضه أسود كالدجى وبعضه أبيض كثوب الحرير الفارسي ، قد سالت غرته كما
سال الماء :

قد سالت الأوضاحُ سيل قرارة فيه ففترقُ عليه ومبلىق (١)

صافى الأديم كأنما ألْبسته من سندس برداً ومن إستبرق (٢)

وبعد هذه السرعة التى تفوق الريح فى جريانها ، يرسم الشاعر غرة الفرس
وأذنه ثم كفله الململم وذنبه الضافى . وصور منخره كالكير ، يخوض الوغى
فى حلة حمراء ، ويسبح فى غمرة الموت ورحى المنية تطحن .

ووصفه الشاعر فى ديوانه كذلك فقال : بأنّ الحصى تطير من تحته لسرعته
ذا ما حثه السوط . ورسم لجمه الحديدية يلوّكها كما تلوك الفتاة مساوكها ،
ويتبختر كأنه يمشى بكمّ مسبل ، محجل فى قوائمه غير اليمين .

والبحترى وصف الخيل فأبدع فى تعداد سماتها وشياتها . قال إن جواده جارى
الحياذ فطار سبقاً ، جذلان تلطمه غرة كأنها البدر فى تمامه ، وأذناه متقدمتان
كأنهما عينان يرى بهما . يختال ويكب ويشب ، طويل العنان والحزام ، معافقه
لينة كأنها الخيزران ، وفى غرته بياض كأنه الشيب فى مفرق رجل لاه عابث
غزل . وأما صهلاته فكأنها الرعد فى ازدحام الغمام ، فالعجائب تقسمت محاسنه .
ورسمه فى قصيدة أخرى فجعله كالحميكل فى ضخامته ، يهوى فى سرعته كما
تهوى العقاب حين ترى صيداً ، وينتصب كالصقر؛ تحسب البدر فى جبينه ،
وذنبه طويل يسحبه كالرداء ، صافى الجلد كصفاء السيوف فى حمرة كخمر
معتقة . وصهيله كال موسيقا بل يفوق نبرات المغنين المشهورين . وهو جذلان ينفض
خصلة الشعر فى غرته ، وشجاع يغشى الوغى فلا يحوج إلى جنة أو ترس ، ليس

(١) الوضع : الغرة - القرارة : القاع المستدير يجمع فيه ماء المطر .

(٢) السندس : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج - الإستبرق : الديباج الغليظ .

له مقتل ، وإنما يقتل حيث يصيب . وجسده في لونه كأنه نمال متتابعة سوداء
وحمراء :

✓ مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
✓ وإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل
وهو في قصيدة ثالثة : أشقر ساطع يغشى ظلمات الحرب فينيرها كالكوكب
المتأجج ، وشيائه كأنها مطلية بالدماء القانية ، يهيج السوط كما تهيج ريح
الجنوب حريق النبات ، جذلان أبداً ، تحسده الجياد إذا مشى ، دقيق الحصر
ضامر البطن ، على المتن وقوائمه وثيقة .
وهذه الصور تتلخص في سرعة الفرس وطيشه ، واون جلده ، وغرته ،
وضخامته ، وذنبه الطويل ، ودقة خصره ، وضهور بطنه ، وعلو متنه . وهي لا تزيد
على ما عند الجاهليين فيما رأينا من وصف الخيل ، بل إن الجاهليين سبقوا في هذا
الميدان ، ولم يصنع المتأخرون كبير أمر ، إلا في وصف الصلف والكبر .

الأسد

أصبح الأسد في العصر العباسي موضوعاً للهو والصيد والرياضة ، وشارك
الخلفاء والأمراء في ذلك ، وروّضوا خيولهم على لقائه رابطة الجأش ، فجعلوها تعيش
إلى جانب قفصه ومرّوها على رؤيته كل يوم . وقد وصف الشعراء حفلات
الصيد هذه ، ورسومها صوراً مختلفة للأسد .

أما البهتري فقد ذكر الفتح بن خاقان وخروجه إلى صيد الأسد فقال :
✓ غداة لقيت الليث والليث مخدرٌ يحدّ ذاباً للقاء ومخالبها
✓ يخصّنه من نهر نيزك معقل منيع تسامى روضه وتأشبا (١)

(١) تأشب الروض : تجمع والتف بعضه على بعض .

إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)
يجرّ إلى أشباله كلّ شارق عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضباً (٢)
شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتا غضباً من البيض مغضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً (٣)
هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلبُ من القوم يغشى باسل الوجه أغلباً (٤)

أقبل الفتح بن خاقان على الأسد ، فراه في معقل حصين وفي قوة منيعة يستطيع أن يفترس حمار الوحش أو بقر الوحش ، فهو في كل يوم يقدم إلى أشباله صيداً جديداً ، ولحماً طريئاً يسحبه على الرمل فيمتزج بالتراب . وليس في هذه الصورة من الأسد إلا بطولته وافتراسه ، لم نلمح فيها شيئاً من أعضائه أو أجزائه ، وأعله قد جعلها ليوازن بين ضرغامين : ممدوحه « الفتح » والأسد المقصود ، فرأى أنهما قد مشى أحدهما إلى الآخر في شجاعة وبطولة مشى النبل للنبل .

وابن المعتز حين وصف الأسد فعل مثل ذلك ، فصوره مخيفاً يهزم الجيش ويجرّ كل لبلة فريسة إلى أولاده يفرحون بها ، وهو شجاع جرىء يحسب الألف واحداً ، يُرهب الدنيا زئيره فما يستطيع أحد أن يعدو على الأرض أو يسرى فيها إذا كان هناك :

يزعزع أحشاء البلاد زئيره ويذهل أبطال الرجال من الذعر
إذا ضمّ قرنّاً بين كفيه خلته يعانى عروساً في غلائلها الحمر
وهذا جميل في وصف الحيوان وفريسته كعراك العرس والزوج في غلائلها الحمر والمتنبى وصف أسداً قتله بدر بن عمار فرسم لونه الأحمر ، وصور زئيره

- (١) العانة : الأتان أو القطيع من حمر الوحش - العقائل : ج عقيلة وهي أكرم كل شيء - السرب : القطيع من الظباء وحمر الوحش - الربرب : قطع بقر الوحش .
(٢) كل شارق : أى كل مطلع شمس - العبيط : اللحم الطرى - الرميل : ما خلط بالرمل
(٣) الضرغام : الأسد - الهيابة : الجبان - النكس : الرذل .
(٤) الهزبر : الأسد القوى - باسل الوجه : شديد العيوب .

يبلغ النيل والفروات وعيناه كنار جماعة من الناس ، يعيش وحده عيش الرهبان ، لكنه لا يعرف التحليل والتحريم ، فإذا سار وطئ الثرى تيماً وصلفاً كأنه طيب يحس يد العليل في رفق :

يطأ البرى مترقماً من تيمه فكأنه آس يحس عليلاً (١)

ويرد عفرته إلى يافوخه حتى يصير لرأسه إكليلاً (٢)

وتظنه مما يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولاً (٣)

وهذا الشعر المتجمع على قفا الأسد يصير حول هامته إذا سار وانتصب فكأنه ملك الغابة قد حلى رأسه بالتاج ، وهو لشدة صوته تظنه نفسه كأنه مشغول عنها . وهذه الصورة فيما نرى أبرع ما رسم الأدب العربي للأسد في لونه وعينيه ومشيته وزثيره وزجرته ، وشعره وهامته ؛ فهي على إرهابها حسية مادية تتجاوب مع رهبة الألفاظ وقوة التعبير .

أما ابن الرومي فقد وصف أسده بأنه غليظ كريحه ، وأذنه مائلة كنصف هلال ، تخضع له الأسود حين يزجر ، ضخم شديد ، رجب الصدر ، ذو كاهل أوبر قوى الظهر مكنتز اللحم ، وحيد في الفلاة مخوف ، وفي ذلك براعة وإيجاز .

الذئب

وصف البحترى ذئباً لقيه في الفلاة فرسم لونه الأسود المغبر وعظامه المقضقضة ومتمنه المقوس ، وذنبه كالحبل يحره وراءه ، قد طواه الجوع فلم يبق فيه إلا العظم والجلد والروح . تصوت أنيابه وفيها الموت كما يفعل المقرور حين يرعده البرد . وكان في الظن أن يرهب الشاعر هذا الذئب الجائع ، ولكنه وقف له كأنهما

(١) البرى : التراب - النية : العجب - الآسى : الطبيب .

(٢) الغفرة : الشعر اجتمع على قفاه - اليافوخ : الرأس - الإكليل : التاج على رأس الملوك .

(٣) الزجرة : تردد الصوت وشدة الصياح .

ذئبان ، كلُّ يُحدِّث نفسه بصاحبه . فاما عوى الذئب أرسل سمحه إليه فأورده
منهل الردى :

سما لى وبى من شدة الجوع ما به ببداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد
وقد أرانا البحترى فى هذه الصورة لون الذئب وعظامه ورهبتة وأسمعنا صوته
كالرعد ، ثم قتله ، وفيها يتفوق على ما رسم الفرزدق لذئبه ، ويشبه رسم الشنفرى
فى وصف اللّون والجوع والهزال ، ولكن البحترى صور عظامه وممنه وصوت
أنيابه فزاد فى الهول والرعب . والشريف الرضى لا يخرج فى تصويره الذئب عن
هذه الأوصاف والحدود .

* * *

وقد وصف الشعراء العباسيون حيوانات أخرى كانوا يرونها خلال الصيد
أو تقع لهم فى الرحلة والأسفار البعيدة ؛ فقد دخل الترف فى حياة الشعب الإسلامى
وأصبح يخلو إلى صيد البر والبحر ، فيسافر أو يجرى وراء الأطباء والتعالب والأرانب
ويقصد إلى الآجام فى صيد الكواسر والأسود ، ويسعى إلى الأنهار ليصيد
السملك وطيور الماء ، واشترك الشعراء فى هذه الرحلات أو فى هذا الصيد ،
وأرادوا أن يشاركوا فى وصفها فكانت لهم صور فى أدبنا تدعو إلى الدراسة والنقد ،
سنعرض لبعضها هنا لأننا لن نستطيع الإلمام بها جميعاً فذلك باب واسع من
أبواب الأدب ، تضخم خلال القرن الرابع حتى ما يستوعب ولا يحصى .

النحل

عاش أبو نواس مع الطبيعة وسكر بمحاسنها وشرب فى كل مكان ، فقصده
إلى الصيد والطرده والشرب ، وتغنى بما رأى وخلف لنا لوحات بارعة خلال خمرياته
غزله نجد فيها صورة للحيوان لم نعهد لها من قبل . فقد رسم النحل فى صورة

لطيفة تغدو وتجيء وتجمع العسل من الأزهار قال :

ترعى أزهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وأحساء
فطسُ الأنوف مقاريف مشمرة^(١) خوص العيون بريئات من الداء^(٢)
من مقرب عشراء ذات زمزمة وعائذ متبع منها وعذراء^(٣)
تغدو وترجع ليلاً عن مساربها إلى ملوك ذوى عز وأحياء^(٤)
كل بمقله يُمضى حكومته فى حزبه بجميل القول والراء
حتى إذا اصطك من بنائها قرص أرونيها عسلاً من بعد إصداء^(٥)
فالتحل ترعى أزهير الغيطان والأودية وتشرب الصافي من الغدران ،
وهي فطس الأنوف بشعة الوجوه غائرة العيون ولكنها سليمة من الداء ، فيها الحبلى
وفى ما ولد منذ قليل وفيها ما يتبعها ولدها وفيها العذارى . وهذه المملكة كل
حكومة فيها تعمل برأى وقول ، ولكنها مع ذلك تبني مجتمعة قرصاً من العسل
تقدمه شهداً حلواً للناس . وهذه الصورة بارعة فى الديمقراطية وبناء الممالك
لا تشبهها صورة فى الآداب الأخرى .

الكلب

ووصف أبو نواس كلب الصيد ، فصوره تصويراً مفصلاً لم نعهده
عند الجاهليين ، فقد رأينا أنهم يسمعوننا نباحه وهجومه وتضحيته القاسية حين
يموت فى فكى الطريدة ؛ ولكن الشاعر العباسى يصف عيشه فى بيت سيده وقد
أنس إليه ، ويرسم من أجزائه ما وصف الشعر الجاهلى من الخيل والنياق ، قال
أبو نواس .

(١) مقاريف : غير حسان الوجوه - خوص العيون : غائراتها .

(٢) المقرب : التى قرب ولدها - العائذ : الحديثة النتاج من الطباء - المتبع : ما يتبعها ولدها .

(٣) المسارب : المراعى .

(٤) اصطك : تم وكل - القرص : ج قرصة وهي فى الأصل القطعة من العجين .

أنعتُ كلباً أهله في كده قد سعدتْ جدودهم بجده
 وكل خير عندهم من عنده يظلّ مولا له كعبده
 بيت أدنى صاحب من مهده وإن غدا جلّله ببرده
 ذا غرة محجلاً بزنده تلذ منه العين حسن قدّه
 تأخير شذقيه وطول خدّه تلقى الأطباء عنتاً من طرده
 فهو حبيب لسيدة أثير عنده بفضل سعيه وكده ، يبيت أقرب الناس إلى
 مهده فإن أصابه برد جلله ، وهو ذو غرة محجل بزنده ، يلذ الرائي حسن قدّه ،
 فشداه عريضان وخدّه طويل ، وهو شديد على الأطباء في الطراد . وهذه الصورة
 جميلة تصف جسم الكلب وأعضاءه وعمله في الصيد فتعيد إلى الذكرة وصف
 الشعراء الجاهليين للخيال وعنايتهم بها وحبهم لها .

الديك

ووصف أبو نواس كثيراً من الديكة ، فأحسن في وصفها لما كانت تهيجه
 في الصباح إلى الصبح وتدفعه إلى الشرب وتنبيهه إلى طلوع النهار ؛ فقال :
 أنعتُ ديكاً من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر «المهدى»
 أشجع من عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند
 يقعين من خيفته للسفد له سُقاع كدوى الرعد^(١)
 منقاره كالملول المحمد يقهر من ناقره بالنقد^(٢)
 عيناه منه في القفا والحد ذو هامة وعنق كالورد
 له اعتدال وانتصاب قدّ كأنه الهداب في الفرند^(٣)

(١) السفد : نزو الذكر على الأنثى - سقاع : صوت .

(٢) النقد : ضرب الطائر بمنقاره .

(٣) الهداب : الطرف مما يلي طرته - الفرند : السيف .

فهذا الديك الهندي جميل شجاع ، يقف في الدجاج كما يقف الملك في رعيته^(١) ، منقاره كالمعول يقهر به خصمه ، وهامته وعنقه كالورد الأحمر ، وأما قامته واعتداله فكأنهما السيف المستقيم ، وصوته كدوى الرعد ، شديد الهيبة مطاع .

الفهد

وابن المعتز ، جراه في أكثر أوصافه للصيد ، فصور الفهد وكان يقوم عندهم مقام الكلب فقال :

ولا صيد إلا بوثابة تطير على أربع كالعذّب
وإن أطلقت من قلاذاتها وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كنضمّ الحب لمن قد أحبّ

وهكذا ترى أنه أسبغ على الفهد صورة حبسية تصف حبه لهذا الحيوان وفرحه في الصيد بما يصطاد ، وسرعته في اللحاق بالطريدة كأنه يطير على أربع فيثير الغبار كزوبعة من بنات الرياح . وحين يعود الفهد منتصراً يضم الطريدة إلى نحره كما يضم الحب حبيبته . وهذا تصوير بارع لابن المعتز لا تنقصه الحياة ولا يتخلف عنه النشاط والحركة .

الصقّر

ووصف ابن المعتز الصقّر فقال :

(١) صور الصنوبرى ديكه بصورة قريية من هذه فجعله عقيد الملك من نسب كسرى وقد عقد على رأسه التاج ، يلبس المطرف ويرضى الذوائب .

وأجدل لم يخلُ من تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب^(١)
 يهوى هوى الدلو في القلب بناطر مستعجم مغلوب^(٢)
 كناظر الأقبل ذي التقطيب رأى أوزاً في ثرى رطيب^(٣)
 فطار كالمستهول المرعوب ينفذ في الشمال والجنوب^(٤)

فاستخدم الصور الجاهلية القديمة في سرعة الصقر إذ شبهه بهوى الدلو في البئر أو نظر الأحول إلى الأوز حين يطير إليها كالمرعوب . وعهد إلى الرجز واللفظ البسيط .

ورسم الشاعر كذلك صيد السمك ، فوصف الجدول والحصى والزهر والشبكة والشص ، فرأى النهر فضياً والحصى نقياً والتربة ذات ثرى وضى ، والزهر مبتسماً . وقد اصطاد السمك بشبكة لها مقلة تلحق بالقصى من الحيوان . وقلده في ذلك السرى الرفاء .

البعوض

ووصف ابن المعتز البعوض ، فحدث عن أثره في جسده فقال :

بتٌ بجهد لا أذوق الغمضا مسهداً يضرب بعضى بعضاً
 قد قطع القرقرس جلدى عضاً منتهشاً بقرسه منقضا^(٥)
 كشرر القدح إذا ما ارفضاً يدمن إسخطك حتى ترضى
 ولا تمالك من الضحك حين تتصور المسهد يضرب بعضه بعضاً ، وحين

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) القلب : البئر - الناظر المستعجم : الذى ينظر إلى الشيء كأنه يعرفه .

(٣) القبل : الحول في العين .

(٤) المستهول : الفزع .

(٥) القرقرس : البعوض . - القرقرس بكسر القاف : صغار البعوض .

يقطع البعوض جلد النائم عضماً وينقض كشرر القدح . ولكن هذا الضحك مؤلم لأنه يصور أكثر ليالى الشرق فى الريف خلال الصيف .

الطير

وابن الرومى وصف الطير شرعاً على حوض المنية ، وأصدقائه الصيادون يهيمون بصيده ضاحكين هازلين معهم آلاتهم وقسيهم ، والطبيعة تبكى لمصرع هذا الحيوان وما ينتظره على أيدي الصيادين فيقول :

فظل صحابى ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرعاً
وقدرنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها فتشعشعا

ونحن نرى فى صورة الطبيعة والصيادين رسماً بديعاً مؤثراً أعاره ابن الرومى من نفسيته وحزنه وحبه للحيوان وشعوره الرقيق حياله .

وقد وصف الصابى البغاء محبوسة فى القفص كالغادة العذراء وما لها من ذنب فى هذا الحبس إلا أنها ضحية الحب ، قد تميزت بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان . ورسم السنجاب فجعله خفيفاً على النفوس تشبهى قربه العيون كأنه أخو الشباب .

وصور الصنوبرى الورشان ، ذلك الطائر المغرد ، الذى يودع المسامع ما شاءت وما لم تشأ من الألحان ، فجعله فى رداء من سوسن وقميص مزرر فى ظهره يبدو فى لون السماء ، وجيده فى لون الفرقدين ، وهو يدعو الصبح لأنه يملّ الكرى فيمدّ صوته حين يمدّ جيده . ورسم القمرى فى لون الغمامة يستغنى بهديله فى غسق الدجى عن مطرب الأوتار .

الهر والجرذان :

ولم يغفل الصنوبرى عن الهر والجرذان ، فقال بأن الجرذان خلقت منذ الأزل لعبث والفساد والأذى والحراب تنقب فى الأرض والسقف والحائط وتأكل كل شئ وتشرب كل ما ترى وتقرض الثياب . أما الهر فهو ليث الغاب كالقنفذ فى ازبواره وكالذئب فى افتراسه والحية فى انسياحه ، ينصب طرفه أبداً قبل الزوايا وإزاء السقوف والأبواب ، ينتضى ظفره فى حربه :

يسحبُ الصيد فى أقل من اللهح ولو كان صيده فى السحاب
غاسل وجهه بإحدى يديه مستعين فى غسله باللعباب
ويعى الصوت إذ يعى فى طوى وهو يرنو إذا رنا من شهاب
ولهذا الهر قرطق وقلادة وخضاب ، كما نرى للهرة فى عصرنا بالبيوت العربية ، وهو صاحب بل أعزّ الأصحاب وأوفى الأحباب .

وهناك حيوانات أخرى وصفها شعراؤنا ، فقد رسم أبو نواس فى ديوانه الثعلب والبازى والعنكبوت ، وصوّر غيره الذباب والبغال والحمير والضفادع ، والحية فى ديوان ابن المعتز وصف لطيف شبهها فيه بالغصن يعلوه نور وورق ، ولكننا لن نعرض لها هنا ، لضيق الصفحات ، مكتفين بما أوردنا من صور رسمها هؤلاء النوايع فأبدعوا حتى الكأنهم يرسمون بالريشة والألوان ألواحاً لو عرضت فى متاحف العالم لحازت السبق وربحت الخلود .

ونحن حين نوازن بينهم وبين أجدادهم نجد أنهم اتخذوا أول الأمر صور الجاهليين سنناً يسرون عليه ، ثم أفادوا فى الاختراع والابتداع ، فالتمسوا ألوانهم من حضارة الفرس وحياتهم الجديدة ، فجمعوا ثروة القديم إلى ثقافتهم المكتسبة ، وبلغوا ذروة وقف عندها الوصف ققصرت بعدهم أجنحة الشعراء فى التحليق حيناً من زمن ليس بالقصير .

افصل السابع

العصر العباسى

وصف الطبيعة الميئة

السحاب والمطر — الأنهار والبرك — السفن — الأزهار والثمار — الرياض —
الليل والأفلاك — الأطلال — القصور والأبنية — الماء كل والأطعمة — مرافق البيت

ألم العباسيون بالبساتين والرياض ، فعاشوا فى هذه الطبيعة الجميلة ، ينعمون
بالزهر والنور ، وينظرون إلى السماء ، وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور
المشيئة ، والسفن ومرافق العيش الجديدة ، فكانت حياة ناعمة مترفّة لكثير من
طبقات الأمة ، وذهب الشعراء مناهب بعيدة فى وصف هذا الكون الجديد ،
واستطاع بعضهم أن يخلق بجناحين فى آفاق حديثه ، وقعدت ببعضهم أجنحة
الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء وألفاظهم ، وسنعرض هنا نماذج لهذا
الشعر الذى انطلق منذ فجر العباسيين حتى وقف الاختراع والابتداع ، وأصبحت
همة الشاعر فى أن يجتري وأن يعيد وأن يقلّد .

السحاب والمطر

نظر الشعراء فى هذا العصر إلى السحاب كما نظر القدماء فرأوا فيه قاتل
الحل وجالب الخير والغيث والنعمة . والشرق العربى كله ما يزال ينظر اليوم إلى
المطر والسحاب نظر القدماء فيرى فيهما قتلا للجذب وسبباً للخصب .

قال أبو تمام يصف ديمة إنها سمحة القياد مكوب ، يستغيث بها الثرى
المكروب . ووصف السحاب في مكان آخر فقال إن الدنيا صاحت : لقد أتى
قاتل الخمل ، وارتدى الروض بالبقل ، وانطوت بطون الأرض على خمل . فاهترت
ارتياحاً لرقعه كما تهتز البكر للبعل .

ورأى ابن الرومي في السحاب غطاء للأغوار والنجوم أقبات تتهادى في
سيرها فرأت الأرض فيها حياة بعد همود وغيثاً بعد إجمال ، وقال الناس هذه
فتوح السماء قد ظهرت لتطفيء الغليل . وفي قصيدة ثانية قال الشاعر :

إن هذه السحب يرسلها سائقها كيفما يشاء فتجود بدرّها ، وتبجس الأرض
وينشق الأديم فتقضي حقوق القيعان وبعد عقود ، وتجري المياه فوق الربى
والوهاد ، وحينئذ يتضحك الروض الكئيب ويتفق الزهر والنور ، ويتنسّم الخلق
التفحات ويضوع المسك ، ولا يرد الطير في كل مكان كأنه طرب مشوق يتعلل
بالغناء .

والبحرّي أجاد في وصف السحابة والبرق فرسمهما رسماً موفّقاً حين قال :

ذات ارتجاز كحنين الرعد	مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد	ها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد	ولع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد	فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض ببعش رغد	من وشى أنوار الربى في بُرد
كأنما غدرانها في الوهد	يلعبن من حبابها بالنرد

ففيها الرعد وصدق الوعد ، وهي تبكي بدمع مسفوح بغير وجد ، ونعيمها
كنسيم الورد ، وزئيرها كزئير الأسد ولعها كسيوف الهند ، وقد حملتها ريح
الصبا من بعيد فانتشرت كما ينتثر العقد ، فأنعشت الأرض بالنور والزهر وأصبحت
الغدران منها يرقصن بالحباب كما يلعب بالنرد . وهذه أوصاف حسية شبه كل

شيء منها بشيء يضارعه ثم كساها عاطفة الحنين والدمع والوجد وجعلها للخير والبركة والعيش الرغد . ولكنه لم يصف شكلها وضبابها ، والرسوم التي تنشأ فيها ، وإنما رسم تأثيرها في الأرض وخدمتها للعالم فقلد القدماء وجمع فيها كل ما قالوا في مثل هذا الموضوع ، ولكنه أفاض في التشبيهات وزاد في رقة اللفظ فيجاءت عبارته تغنى غناء كما قال النقاد في شعره كله .

وأما ابن المعتز فقد حسب أن السحائب لا تمل البكاء ، وأن دموعها تجري في حدود الثرى ، يقدح منها البرق كالسيوف الهندية ، فإذا دنت من الأرض جالجل الرعد أجش كصوت الرّحا ، ثم سحّت فارتدت الأرض بالنور والزهر، وشبّ النبات واكتهل . وفي قصيدة أخرى ، قال الشاعر إن البرق يضحك فيها فتتصل الأرض بالسماء كما تتصل الحليم بالحبال ، فكأن رعدا مستعبر يبيكى في صخب ، وهي أبدأ مثقلة بالماء تنهادى فوق أعناق الرياح ، ينفث بها النور وينتشر بها العطر .

وقد وصف الشعراء البرق بمثل طرف العين في سرعته أو الشهب في هبوطه أو كأنه حية تصدعت أحشاؤها — كما قال ابن المعتز — أو كأنه سيوف لمعت لكنها تفعل في الأرض فعل الوجد بأحشاء الحزين . وأبو تمام يرى البرق يتحول إلى ماء وهو نار ، يرضى الثرى ويسخط الغبار ، ويرى البحترى سرى البرق البرق كنبض العرق ، وابن المعتز يجد أن البرق يشقق السحاب كما يصدع المشرفى هامات الرجال ، أو كأنه سنا قبس في جذوة من نار .

الأنهار والبرك

وما دما قد عرضنا للسحاب والمطر فسنعرض للجداول والأنهار والبحيرات مما وصفه هؤلاء الشعراء ؛ فقد وصف ابن المعتز دجلة عند الفيضان فرآه كالبحر تخر لفيضانها الجدران كأنها تسجد أو تركع ، والسقوف تمطر والأرض أعين

تنبع ، والبستان فجوة يسبح في مأها الضفدع . ووصف شاعرنا بركة غناء
تموج فيها الماء ، كأنها في الدجى مرآة قد انصقلت ومقبضها الخليج .

ووصف البحترى بركة المتوكل كأنها واحدة في الدنيا يليها البحر في العظمة ،
وهي تنافس دجلة في الحسن وتباهيه كأن جنّ سليمان أبدعوها ، فلو أن بلقيس
مرت بها عرضاً لقاتل إنهما الصرح تمثيلاً وتشبيهاً ، تنصب فيها دفقات الماء كالخيل
تخرج من جبال مجريها أو كأنها الفضة البيضاء سائلة من السبائك ، فإذا مرّت
الريح أبدت فوقها صوراً كالدروع مصقولة الحواشي ، وإذا انعكست فيها
النجوم حسبتها سماء ركبت فيها النجوم ، تغوص الأسماك فيها وتغيب ، وتحفها
الرياض كريش الطاوس في تلوينها وزينتها :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ورّيق الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

ووصف المنبى بحيرة طبرية فصور الموج مُزبدأً والطيور فوق حبابها

كفرسان بلق تخونها اللجم ، فحين تضربها الرياح تحسب أن بها جيشين
يتحاربان أحدهما هازم والآخر منهزم . ووصف أبو فواس الماء والبرك فقال :

انظر إلى زهر الربيع والماء في برك البديع

وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع

نثرت على بيض الصفا ثح بيننا حلق الدروع

فشبه صفحة البركة - كما فعل البحترى - بالدرع وحلقه تبدو كال موج

الضعيف حين تهب عليه الرياح مقبلة مدبرة .

وأكثر الشعراء وصفاً للنهر في هذا العصر هو الصنوبرى ، إذ رسم نهر

« قويق » في حلب عدداً من المرات في شعره ، هجاهُ وسخر منه فقال :

« قويق » إذا شم ريح الشتاء أظهر تيهاً وكبراً عجيباً

وناسب دجلة والنيل والافرات بهاء وحسناً وطيباً

وإن أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيباً
إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق! أبي أن يجيبا!
تغوص الجرادة في قعره وتأبى قوائمه أن تغيبا!

فهو يصف النهر في الشتاء على كبر وتبه كأنه يفاخر دجلة والفرات والنيل
لكثرة ما ينصب فيه من سيول وأمطار ، ولكن الصيف يكشفه فيبدو ذليلاً
حقيراً كئيباً تناديه الضفادع فلا يجيب وتغوص الجرادة في قعره فلا تغيب ،
وهذه صورة جميلة في هجاء النهر . وله في البركة والفوارة صورة مليحة مستحسنة
نرويها هنا :

وبركة منظرها يطربُ للماء فيه ألسن تعرب
تحسبها من طول ترجيعها دائماً تنشد أو تخطب
كأن فوارتها وسطها إذا ترامت لعب تلعب
من يمنة فيها ومن يسرة قنطرة واقفة تذهب

فالفوارة خطيبة متكلمة تنشد أو تغنى أو كأنها تلعب ، بل هي قنطرة تقف
وتنتقل .

السفينة

ورسم الشعراء ما كان يجري على الماء من سفن كثرت لوفرة الأنهار ،
فسالت فيها كما تسيل السيارات اليوم في دروبنا ، وكان هذا الرسم شبيهاً بصور
القدماء لما يسبح على الرمل من هودج . وبشار يقول إن تيار البحور يتلاعب
بالسفينة ، وربما رأيت نفوس القوم تجرى من جريها لرعبهم بتميلها . وصورها
مسلم بن الوليد كما يصور الجاهليون طبقات الرمل ، بل جعلها تسير من الإشفاق
في جبل وعر تشنى وتختلج ومجدافها يسوقانها كجناحين ، فهي كالعقاب

تدلت من هواء على وكر ، وحين تواجه الصبا تمشى متمايلة كمشى العروس إلى الحدر .

وابن الرومي شبهها بالنسور في أجنحتها الخفاقة وخرائطها تطير على أقفاؤها وظهورها بمصطخب التيار ، فسيرها يشبه النعائم إذا تمهلت . وأما أبو نواس فقد وصف سفينة كانت للأمين في صورة الأسد ، كما كان له غيرها في صورة العقاب والفرس فقال :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب الحراب
فإذا ما ركابه سرن برّا سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشدق كالحلح الأنياب^(١)
لا يعانيه باللبام ولا السو ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذا رأوه على ص ورة ليث يمرّ مرّ السحاب
فهى لا تسير بلجام بل تجرى بغير سوط ومن دون أن يغمزها الراكب برجليه
فتمر مرّ السحاب فلم يخرج عن وصف القدماء للمطايا ، وإنما فضلها عليهم
إذ رسمها تجرى على الماء وتلك تضرب في الرمل .

ووصف البحترى السفينة فقال : إن فرعون ظن أنه إله النيل ولكنه لو رأى ما يركب المعتر لرأى قصراً على الماء يسبح :

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجه يجرى
وأما مهيار الديلمي فيقول إنها تعودت الطوى لا تأكل إلا الماء ، فإذا كان
الفرس لا يطيق غير فارس واحد فإن الفرسان عليها مزدحمون ، تشق الماء كالحية
في التراب ، ولها زبد من سرعتها ، فإذا رحلت بالشرع مرّت كأنها من جوافل
النعام ، فهو يوازن بينها وبين الناقة فيجد أن العليق عليها حرام ، ويسمى الزبد
الذى ترسله السفينة لغاماً كزبد الناقة سواء بسواء . وفي هذا برهان على أن صور

(١) أهرت الشدق : واسع الفم .

البادية لم تبرح مخيلتهم ، فلم يبتعدوا عن النياق والنعام والعليق واللغام وهم ينظرون إلى السفن تعوم على الماء .

والسرى الرفاء لا يختلف عن الشعراء في وصفها حين يقول :

كل زنجية كأن سواد الليـ ل أهدى لها سواد الإهاب
تسحب الذيل في المسير فتختا ل وطوراً تمر مرّ السحاب
وتشق العباب كالحية السو داء أبقت في الرمل إثر انسياب
فرسمها زنجية لأنها مطلية بالقار تسحب الذيل في المسير وتشق العباب
كالحية السوداء تركت أثراً بعد انسيابها .

الأزهار والثمار

أحب العربي الجاهلي الغيث فجعله نعمة ورحمة يستقي ويشرب ويسقي راحلته ويقتات ، واكن العباسي زاد على هذا كله أنه يرى فوق النعمة ترفاً ونعماً ، فيرى المياه والأنهار والبحيرات والبرك والسفن ، ويجد الزهر والتّور في البساتين والرياض فينعم كذلك بمنظرها ومرآها ، ويأكل من الثمر لما لذ وطاب . وما أشرف القرن الرابع والخامس حتى انصرف الشعراء إلى الرياض والزهر والثمر ، فاستبدوا بالوصف وحلقوا فيه فأتوا بالعجب العجيب ، وخصوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعوا في تصويرها ، حتى لقد قال بعض النقاد إن الطبيعة ظفرت في شعر الحمدانيين بنصر عظيم ونهضة طيبة . وقد تنبه المعاصرون في ذلك الزمان إلى هذا ، فجمعوا ألوان هذه الأوصاف وقاموا للموازنة بينها على أنها فن مستقل ، فكتب السرى الرفاء في ذلك وهو من رجال القرن الرابع ، عاش في العراق والشام ونظم في هذه الألوان وشارك فيها مشاركة شاعر وصاف ، لذلك عدنا إلى كتابه « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » ، ونظرنا في مخطوطته لنجمع أشتات هذه الصور ونعرض نماذج منها لعلنا ندلل للقارئ

على روعة ما وصل إليه الشعر في هذا العصر ، كما فعل المؤلفون بعده ، فجمعوا من فصوله وجعلوها في كتبهم ، كنهاية الأرب للنويري وغيره ؛ فقد نقلوا عنه بعض موضوعاته وفيها كل عجيب : نفح الأنوار وسقوط الطل عليها ، واهتزاز الأوراق والأغصان ، والشقائق ، والبنفسج ، والأقحوان ، والرجس ، والسوسن والياسمين ، والخيري ، والبهار ، والجلنار ، والسفرجل ، والزعفران . ولا سبيل إلى سردها كلها في كتاب موجز كهذا الذي نكتب فيه ، وفيها شعر جميل وثروة ضخمة . ولعل أحسن الشعراء في هذا الباب هو الصنوبري ، فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض ، وسموا الفن الذي خلق فيه بالروصيات ، بل إن ديوانه بستان تمايل أغصانه بالثمر ، وتهتز نباتاته بالنور والزهر ، رسم الفصول وما تنبت من زهر وثمر فلم تفتته واحدة منها ، ولم يقصر شعره على فصل واحد ، واكنه فصل الربيع :

إن كان في الصيف ريحان وفاكهة فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن في الخريف المحل مخترقاً فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن في السماء الغيم متصلاً فالأرض عريانة والجو مقرر
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوته والجرى لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سخائبه فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه جنى الورد منضود موردة به المجالس والمنثور منشور
هذا البنفسج هذا الياسمين وذو الن سرين ذا سوسن بالحسن مشهور
فالصيف ذو فاكهة وريحان وفي الخريف تتصل الغيوم وتتعري الأرض
ويسود القر ، وأما الربيع ففيه النور والنور ، والأرض خضراء والجو صاف
والماء بلور والنبات سكران أو مخمور ، والورد منضود والمنثور منتشر .
ووصف كشاجم الشقائق حمراء مصقولة كأنها وجنات أربع قد جمعت ،

ولكل واحدة في صحنها خال . ورسم المهلبى البنفسج كأنها أوائل النار في أطراف
كبريت . وشبه الشعراء الورد بالحدود ، وزهر الأقحوان يتضاحك فوق ساق
دقيقة كأنه سكران يتثنى ؛ والزرجس والخيرى والسوسن والنارنج والآذريون تلتقي
في صور جميلة كما تلتقي الحسان في عرس كل تحمل أجمل زينتها وأطرف
أصباغها . وقد قال أحد الشعراء في البنفسج :

وكان البنفسج الغض يحكى أثر اللطم في خدود الغيد
وقال أبو فراس يصف الجملان :

وجلنار مشرق على أعلى شجرة
كان في رءوسه أحمره وأصفـره
قراضة من ذهب في خرق معصفـره

أما الثمار كالتفاح والسفرجل فقد تلاعب بهما الشعراء فشبهوهما برسل القبل
حين تعض بالأسنان ، ورسموهما بما في الوجه من صفرة أو حمرة لأنهم كانوا
يتهادون بهما . ووصفوا العنب والموز ، ويقول ابن الرومي في الموز :

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

الرياض

ونظر الشعراء إلى الطبيعة يرقص فيها الزهر ويلتصع النور ويتميل الثمر ،
ويختال الشجر ، فوجدوا كأن الدنيا في عرس أو كأنها في عيد ، فأثنى ابن
الرومي على آلاء الرحمن لهذا المنظر الجميل ، ووجد أن الروض قد اكتسى
بأفواف الحبر فكان الطبيعة أنثى تهرجت للذكر بعد حياء وخفر . ونظر إلى
الرياض فرأى فيها مصابيح توقد وتلتصع ، والزهر يتضاحك ويرسل أريجيه ،
وكان البساتين تختال كما تفعل الفتاة في خيالها تشكر المولى على ما أنعم
وتثنى على السماء في أرج وعطر ، والنسيم يسرى كما تسرى الأرواح في الأجساد

فتحمل شكرها إلى بارئها ، والحمائم تتداعى كالبواكى أو القيان الشواذى أو كما تغرد الطير فى الأيـك . ويلج الشاعر على معنى الضحك فى النور ويرسمه كما نرسم الأناسى فى عين اليقضى وجيد الناعسة ، والنبت قد اكتسى بالأصباغ فكأنه يلبس الطيـالس أو يحكى الطواويس ، بل هو يجد حين المطر مائماً فى السماء يبكى والأرض تحته كالعروس فرحة مستبشرة .

والبحترى حسب أن الربيع يتكلم من حسنه ، فهو يختال ضاحكاً مسروراً لما يرى من زهر ونور ، فالورد ينبه النـوم النعـس ، والبرد يفتق الزهر فكأنه ييث حديثاً كان مكتوماً ، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منهم ، ورق النسيم حتى لكأنه أنفاس الأحبة ، فتغنت الأوتار وانتشى الندمان كأنهم البدور يستحثون الأنجم . والشاعر يصف البرق يلعب ، والمطر يمتد إلى الأرض كجبال فتتضاحك الأودية وتنتشر اليواقيت وقد جلل النـور ظهر الأرض ، وتقلبت الألوان على الطبيعة فغرد الطير وهبت الريح تختال كالعدارى .

وأبو تمام يشبه زهر الربى بالقمر ، ويحسب أن كل زهرة تترقق بالندى فكأنها عين تحلق فى الناس فيقول :

من كل زهرة تترقق بالندى	فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها	عذارى تبدو تارة وتختفر
حتى غدت وهداها ونجـادها	فتتين فى خلع الربيع تبخر
مصفرة محمرة فكأنها	عصب ^(١) تيمن فى الوغى وتمضّر
من فاقع غضّ النبات كأنه	درّ يشقق قبل ثم يزعفر

وهذه ألوان محبة مزج الشاعر بينها فجاءت لوحة مـترعة بالفن صادقة الرسم كأنها صورة الدنيا تنطق بالجمال .

وأما رقص الأشجار وتثنى الأغصان فالبحترى يشبهها بالعدارى هبت

(١) العصب : برود مخططة يمانية ومضرية .

الرياح بها فأرقصت أفنانها ، وتقاربت للتعانق كالأحبة تنعطف وتصغى للأسرار
أو تستمع إلى الغزل . وابن المعتز يزيد على هذا أن الأغصان في رقص وشرب
وسماع . والصنوبرى يفتن في رسم الشجر فيقول في السرو بحلب :

سروها الداني كما تدنو فتاة من فتاها

ثم يصفه كما نصف الغواني تتلاعب ويداعب بعضها بعضاً فيقول :

والسرو تحسبه العيون غوانيا قد شممت عن سوقها أثوابها

وكأن إحداهن من نفح الصبا خودٌ تلاعب موهناً أترابها

لو كنت أملك لرياض صيانة يوماً لما وطئ اللثام ترابها

فأعار الشجر صورة الآدميين وخص التشبيه بأحسن بني آدم صورة
وحسناً وهي المرأة ! ودعا إلى تكريم الشجر وجهه والحفاظ عليه كما تدعو
حكومات العالم اليوم إلى المحافظة عليه ورعايته .

الليل والأفلاك

وذهب الشعراء في وصف الليل مذاهب القدماء ، فقال بشار : ما ليل
لا يبرح كأنه موصول بليل آخر فما يتزحزح ، ورأى أن الكرى هو الذي أطال
ليله ، أو كأنه التغميض نبا عن عينيه كأن جفونهما قصار لا تتقارب . وابن
الرومي شبه الليل بالدهر لطوله قد تناهى فليس ثمة مزيد كأن نجومه نجوم
الشيب لا تزول ولكنها تزيد يوماً بعد يوم ، وأبو العلاء المعري شبه الليل بعروس
من الزنج .

وتطرقوا إلى النجوم والأفلاك كذلك ، فرأى ابن المعتز أن كل نجم غائر ،
وأن هلال السماء كطوق عروس فوق غلائل سود بل إنه كمنجل قد صيغ من
فضة يحصد النرجس من زهر الدجى ، وأن الثريا كالعنقود في الغرب ، بل إنها
في أواخر الليل كتفتح الزهر أو كلباس مفضض ، أو أنها قدم تبدت من ثياب
حداد . والبحتري يرى سهيلاً كشخص ظمان جانح يكرع . ووصف ابن

الرومي الشمس كالورس المزعزع حين تقضى نحبها . وابن المعتز يصف الصبح قائلا :

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشى في الدجى بسراج
وفي كثير من هذه الصور إبداع جديد وتشبيهات حية تستعير صورها من
الناس والمخلوقات أو الأشياء في الطبيعة .

الأطلال

وسار الشعراء العباسيون كذلك في وصف الأطلال مسير القدماء ، فوفق
بشار بها وبكى أبو تمام ديار الأحبة ، ودعبل وقف بمنازل الرسول ، والبحترى
رثى المنازل كذلك وبكى على الدمن الموائل كالنجوم فإذا عفت فهو يتساءل
بأى نجم يهتدى ؟ ! وهذه الصور لا جديد فيها ولكننا أوردناها لننتهي إلى
تعلق القوم بأوصاف القدماء في كثير من أغراض الشعر .

القصور والأبنية

رأينا أن الشعراء العباسيين قلدوا في وصف الأطلال ووقفوا عند معاني
الأقدمين ، ولكنهم على ذلك وصفوا القصور والأبنية الجديدة ، فرسم البحترى
قصرأ بناه المتوكل على الله بن المعتصم ، وشبه علوه بجبل رضوى أو شواحق
خيبر ، وقال إن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى نجم المشتري . وقد عانقت
شرفات القصر قطع السحاب ، فكأنه يصف ناطحات السحاب لعصرنا الحاضر .
ووصف البحترى كذلك قصرأ بناه المعتز بالله فصور الحمام وقد ذعر من
منظره حين ترنم فوقه ، وصور حيطان الزجاج لججاً تموج على السواحل ، وكان
تفويف الرخام حبك الغمام رصفت في ألوان مختلفة ، وكان سقوفه المذهبة
تنير السبل في الظلام . وأما بساتين القصر فكأنها كسيت بالبرود الموشاة ، والأشجار

فها مثل العذارى الغيد تمايلن عشية حاليات وعاطلات .
وتناول في وصفه قصوراً أخرى نقصر عن تعدادها وتلخيص موضوعاتها ،
فكأنه مهندس معاصر يرسم الأبنية ويصف صورها وأوصافها في شعر غنائى
يتخيل فيه الغمام والبرود والعذارى تختلط في لوحة واحدة ؛ وتحس في وصفه
لقصور المتوكلية كأنه يرسم المدن الحديثة وقد لمعت قصورها كالكوكب تضيء
للسارى السيل ، وهذا ما يشاهده المسافرون اليوم حين يركبون متن الجو ويخلقون
فوق العواصم الكبرى خلال الليل . ولن ننسى وصفه إيوان كسرى فقد أبدع فيه
وأجاد :

وأما الصنوبرى فقد صور مدينة حلب وحوها القرى كأنها بدر الدجى
والقرى أنجم زهر ، ثم رسم الجامع والمثدنة والفؤارة والقبة والسارية ، والشوارع
والدور ، وفعل مثل ذلك حين زار دمشق ، فوصف شامخ البناء وخاصة الجامع
الأموى .

الأطعمة والمآكل

وليس عجباً أن يعرض الشعراء لوصف المآكل والأطعمة بعد أن عرضوا
للسماء والماء والزهر والثمر ، والنبت والشجر ، وصيد البر والبحر ، فكأنهم يريدون
أن يصفوا كل ما وقع لهم .

وصف ابن الرومى اللوزينج ، وهى حلواء تشبه القطائف وتؤدم بدهن
اللوز ، فقال :

أرق جلدأ من نسيم الصبا	مستكشف الخبز ولكنه
من أعين القطر إذا قببا	كأنما قدت جلايبه
شارك في الأجنحة الحندبا (١)	يخال من رقة خرشائه

(١) الخرشاء : قشرة البيض ، وكل شيء أجوف فيه انتفاخ - الجندب : الجراد .

لو أنه صوّر من خبزه ثغراً لكان الواضح الأشنبا (١)
 من كل بيضاء يحب الفتى أن يجعل الكف له مركبا
 ذيق له اللوز فلا مرة مرّت على الذائق إلا أبى
 وانتقد السكر نقاده وشاوروا في نقده المذهبا

فهو كثير الخبز ولكنه رقيق في جلده أرق من النسيم وقشره ناعم كأنه
 أجنحة الجراد ، مزج باللوز والسكر وأصبح يحبه كل فتى ويتمناه كل إنسان .
 فابن الرومي وصفه في دقائقه وتفصيلاته كما وصف الخبز في مراحل بيده الخباز
 يدحو الرقاقة ، فتتحول من كرة إلى قوراء كالقمر ويرسم صورة الحجر يرمى
 في الماء ، وكما وصف الزلاية في رقة القشر والتجويف كالقصب ، وجعل الزيت
 المغلى كالكيما ، يخيل العجين من لحن إلى شبابيك من الذهب .

وكشاجم رسم القطائف كذلك ، ولا عجب فقد كان طبائخاً لسيف الدولة

قال :

كأنه إذا تبدى من كذب كوائر النحل بياضا وثقب
 قد مجّ دهن اللوز مما قد شرب وابتل مما عام فيه ورسب
 ثم وصف البطيخ في لغة سهلة محبة تعودنا ها في رسمه للمأكولات خلال

قصائده :

يا جاني البطيخ من غرسه جنيت منه ثمر الخلد
 لم يأتنا حتى أتتنا له روائح أغنت عن الند
 كأنما تكشف عنها المدى عن زعفران زيف بالشهد
 بظاهر أحسن من قنفذ وباطن ألين من زبد
 كأنما في جوفه قهوة ينقع فيها عنبر هندي
 فهو ثمرة الخلد ورائحته تغني عن الند ، ولونه كالزعفران مزج بالشهد ،

(١) الشنب : ماء ورقة وبرد ، وعذوبة في الأسنان .

ظاهره كالقنفذ في خشونته وباطنه كالزبد في لينه .

وقد صور الشعراء كذلك الدجاج المطبوخ والفراخ ، ووصف ابن العميد طعامه وصفاً مسهباً في قصيدة تسيل بالكوامخ والأطايب من الماء كل ، ووصف السرى الرفاء الحمل المشوى وصفاً جميلاً ، قد شق حشاه ، وصور الصابي طباخه حين يطبخ له العجل والحروف .

مرافق البيت

ووصفوا ما كان في البيوت من مرآة وخاتم وسبحة وثوب ودواة وأقلام ودفاتر ، ومن شمع ونحل ومروحة ودنانير وفرو ، وجعلوا لها مكاناً في دواوينهم ، ونثرها المؤلفون في كتب الأدب ، كما في كتاب التشبيهات لابن أبي عون ، والتحف والهدايا للخالدين ، ونهاية الأرب للنويري ، وقد جمع هؤلاء الأدباء كل ما يخطر في البال من هذه الأوصاف مما تهاداه الناس أو استحسناه ، ولا سبيل إلى حصر هذه الألوان فهي كل حياتهم الاجتماعية وحضارتهم وتمذنبهم ، ولسنا نؤلف في هذا هنا ، ولكننا سنكتفي بعرض نماذج من وصفهم لها .

أهدى المريمي إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون مرآة ووصفها مع الهدية قال

مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ومنطقة في وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجهها متدافع وليس لها غير التألق من حس
لها نور إفرد ورونق جوهر يكدره أدنى التنفس واللمس
فهي تكشف الصور وتُنطق الأوصاف ، تموج بالنور وتتألق بالחס كنور
السيف ووشيه ورونق الجوهر ، تتكدر باللمس أو بالتنفس . وشبهه بهذه الصورة
ما قاله أبو بكر الخالدي في المرآة حين تنفّس أمامها الحسناء فتشبه الغيم
الأبيض :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسنة في المرأة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج
ووصف ابن الرومي الدواة سوداء محلاة بالذهب حين أهداها إلى أحد

الرؤساء :

قد بعثنا إليك أم المنايا والعطايا زنجية الأحساب
قد تحلت بصفرة وكذا الزدج تحلى شكلاً بصفر الثياب
في حشاها بغير حرب حراب هن أمضى من مرهفات الحراب
فهى زنجية وحليها الأصفر كثياب الزوج ، والأقلام فيها كالخراب بل
أمضى منها .

ووصف نطاحة الكاتب دفتره فشبهه بالروض أو بالبرد في وشيه ، فيه
السطور منظومة مشكولة منقوطة كأنه بستان خط غير أن الثمار اتخذت
رسم الحروف فيه . وابن المعز صور القلم كالفلك يجرى بما شاء ، يلثم القرطاس
كما يقبل البساط الشكور ، وهو يجلب العطايا ، أو المنايا ، صغير لكنه كبير
الأفعال .

وأبو بكر الخالدي وصف مروحة فجعلها من النخل والخيزران لبست
سواداً كحداد العشاق ، ترد القیظ وتخفي السر وتصلح لضرب الدلال ويومى
بها في عروض الكلام . ووصف الصنوبرى الشمة فرأى أنها تحول الليل نهاراً
وأنها شجر يحمل ناراً ، وهى عذراء تفتض من أعلاها . والحسين بن الضحاک
رسمها صفراء كذلك ولكنها مثل الأفاعى إذا ألهمت ، وشعلتها زرقاء كأحداق
الروم :

ولم أر من قبلها أنفساً تذيب الجسوم بأحراقها
وإن مرضت لم يكن برؤها بشئ سوى ضرب أعناقها
وابن الرومي جعلها هيفاء من ندماء الملوك ، صفراء كالعاشق المدنف ،

فهى تكيد الظلام كما كادها ، فتنفى وتفنيه .

والشاعر الصنوبرى وصف نعلا يستهدها فرسم أجزاءها وألوانها وصورها كالطائر ترفرف ، فكأن خرزها بالخيط يشبه عيون النمل ، وكأن شكلها يشبه أذن بقر الوحش فهى حيناً كالحية وحيناً كالعقرب إذ تقبل أو تدبر .
وتعرض أبو تمام للثياب فوصف كسوة الصيف كقشر البيض أو السراب الرقاق فى القفر ، يرجف بالريح كأنه كبد المحب أو قلب الخائف ، يلصق بالمتن والأضلاع ويطرد الهجير . وكذلك وصفها التنوخى فجعلها تخفق كقلب الجبان ، أو السراب والماء والسناء والبهاء حين تلتمع جميعاً .

* * *

وهكذا رأينا هؤلاء الشعراء خلال خمسة قرون يقف بعضهم بالأطلال يبكى الديار والمنازل ، وبعضهم يقف بالقصور فيصف الرياح والوحش والحداد كأنه فى فلاة ، ومنهم من يركب المطى إلى الممدوح ، ويصطنع كثير منهم ألفاظاً بدوية وصوراً جاهلية . ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا فى كثير من صور الوصف فى الطبيعة فرسموا ما لم يرسم الأقدمون وصوروا ما لم يقع فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فكانت ثورة سايرت الزمن فى كثير من نواحي حياتهم الاجتماعية ، فخلقوا صوراً تمثل عيشهم وحضارتهم ، والأدوات التى كانت بين أيديهم والمشاهدات التى تراقصت أمام أعينهم .

الفصل الثامن

العصر العباسي

وصف الخمر والسقاة

انطلق كثير من الشعراء في هذا العصر إلى الشرب في الأديرة والحانات والقصور ، في مجالس عامة أو خاصة ، ووصفوا الخمر والسقاة والكؤوس ، وأصوات المغنين والمغنيات ، وهم يمتعون النظر بالراقصات من قينات أو جوار ، حتى لم يخل ديوان شاعر في هذه الأزمنة من وصفها سواء شربها أم لم يشربها ، فقد أصبح وصفها فذاً من الفنون لا يجوز للشاعر إغفاله أو القعود عن التسابق فيه . وكان القول في الخمر لم يكن يضير صاحبه أو يكلفه عنثاً ، فقد نقلت كتب الأدب أن الوزراء والأمراء وبعض الخلفاء أقاموا مجالس لشربها أو وصف ما يدور فيها ، ولذلك كثر الشعر في الخمر والشراب وتقلبت عليها الأسماء وتنوعت ، فهي قهوة ومدامة وسبيطة ومشعشة وصرف وعقار ومصفق وكميت وصهباء وسلافة وعانية و .. إلى ما لا نستطيع حصره . وكثرت كذلك آلات الشرب وتنوعت أسماؤها حتى خصت بها كتب في شربها وفي النديم كما فعل كشاجم وابن المعتز والسري الرفاء ؛ والشابشتي في كتابه الديارات رسم الشاربين والعابثين في هذه الأماكن .

ولعلنا نستنتج من شعرهم أنهم يحبونها عتيقة أزلية ، فيقول أبو نواس : تفاني جسمها والروح باق ، ويقول ابن المعتز إن الناس أسكنوها الدنان من عهد عاد

وأن الدهر أكل ما تجسم منها وأبقى لبانها المكنون ، ويصورون فضّ ختامها
 كأنه الذهب أو توقد المريخ في الظلماء ، قال الصنوبري في ذلك :
 وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر في أرض من الذهب
 وسبح القوم لما أن رأوا عجباً نوراً من الماء في نار من الذهب
 ووصف والبة بن الحباب إبريقها فقال :

إبريقنا مصلّ يضحك في صلاته
 يكب ثم يُقعى كالظبي في فلاته
 يمجّ كل شيء يمرّ في لهاته

فلم يتورع عن إدخال الصلاة وألفاظها في وصف إبريقه ، ورسمه كالظبي
 يكب ويقعى. ووصف الشاعر البسامي إبريقه ضاحكاً باكياً كإنسان حزين فرح
 ملثم بالقز أو متشح به ، وصوّر الشرب حولها فقال :

ترى أباريقهم مقدّمة يعلمها الفتية المغاوير
 كالطير حامت على شرائعها فابتل من وردها المناقير
 وهي صورة حلوة تجعل الشاربين من الخمر كالطير تحوم حول الورد فتبل
 مناقيرها . وتعرض الشعراء للون الخمر فجعلها ابن المعتز كالذهب :

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها سائلا
 وزناً لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا

والخمارة في العصر العباسي تكون رومية ومجوسية وفارسية ، وتكلف مالا
 طائلاً كما رأينا في العصر الجاهلي سواء بسواء . وحيناً ترى لون الخمر أصفر
 زعفرانياً إذا تأملتها حسبتها في ثوب كافور ، وحسبت الطل بينها كدمع تحدر
 من أجفان مهجور كما قال ابن المعتز .

وأبو نواس يراها صفراء كذلك لا تنزل الأحزان ساحتها ، لو مست حجراً
 لأصابه سرور فكيف إذا شربها الإنسان؟ ! وأما رائحتها فهي كالعنبر أو

المسحوق الهندي من المسك قال فيها البحرى :

ولها نسيم كالرياض تنفست في أوجه الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع ترددت في صحن خد الكاعب الحساء
ومسلم بن الوليد يصفها صاحبة كعين الديك لا تقبل القذى ، ويمزجها
ابن المعتز كالماء بماء السحاب فيرى في وجهها نسيج الدروع :

قهوة زوجت بماء سحاب فكسا وجهها نقاب حباب
مثل نسيج الدروع أو مثل ميا ت تدانت به سطور الكتاب
وتراها في كأسها مثل شمس طلعت في ملاعة من سراب
فإذا صادفت فؤاداً خلياً لم تدعه فرداً بلا أحباب
إنها خمر ابن المعتز قد زوجت بماء السحاب فاكتست من الحباب بنقاب
وأصبحت مثل ميمات في كتاب ، فهي شمس في الكأس طلعت في ملاعة
من سراب. والشاعر يجد الماء كالفضة لها حلق بيض تحل وتعتقد .

وشبهها البحرى في رقها بلفظ الصب يشكو حرارة الوجد . وكشاجم يراها
تحول الحليم سفيماً .

لست أدري لركة وصفاء هي في كأسها أم الكأس فيها ؟ !
فهو يصف الكأس في صفاء ورقة يحبهما الشعراء كالصنوبرى وابن المعتز
ويقول فيها البحرى :

لبست زرقعة الزجاج فجاءت ذهباً يستنير في لازورد
وكلهم في تشبيها بالشمس أو بالنور والذهب أو اللازورد ، يستعبرون
من الطبيعة والأفلاك ويجعلون ألوانها صافية مشرقة . وأبو نواس يخترع لها أوصافاً
عجيبة لشدة صحبته لها وعكوفه عليها ، فيجعلها كمصباح المساء .

وابن الرومي يصف الشارب في لطف ورقة وبلاغة فيقول :

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

فكأنه والكأس في فيه قمر يقبل عارض الشمس
وهذه الصورة أعجبت القدماء ووقفت في صفحات كتبهم تعبر عن
البلاغة المثلى والفصاحة العليا . وقد كلف بها الشعراء لأنها تزيل الهم وتشفى
الداء ، وابن المعتز شرب بالكبير وبالصغير من كؤوسها لا يحفل بأحداث
الدهور ويرى أن خيل الملاهي يجب أن تركض به وأن يطير بأجنحة السرور ،
فإذا ما استقرت في قلب في نسي لوعة الكدر فيقول :

خليليّ اتركا قول النصيح وقوما وامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع إبريق لكأس ونادى الديك : حى على الصبوح
وحنّ الناي من طرب وطيب إلى ناي يكلمه فصيح
هل الدنيا سوى هذا وهذا وساق لا يفارقنا مليح
فهو حين يجتمع له الخمر يرى أن يجتمع الناي المطرب والساقى المليح !
فالدنيا في خير وسرور ، وليست مليحة إلا بهذا الشرب وهذا الطرب .
ووصف الشعراء كذلك ما تبعث الحمرة في العين والحد من حمرة قانية ،
وعينوا أوقات شربها حين تتسابق السحب والأمطار والغيوم في سماء الطبيعة ،
وتنعقد ألوان قوس قزح في الأفق ، فالشمس مريضة وكأن الحجب مدت عليها
ثياباً ، والطيور مشغولة تتطارح صنوف الغناء . وكثير منهم يستحب أن يشربها
والثلج يتساقط فتشيب الأرض وينتشر العبير ، كما فعل أبو فراس الحمداني
وكشاجم .

وقد قال الصنوبري يصف الطبيعة وهو يشرب :

الجو بين مضمخ ومضرج والروض بين مزخرف ومديح
والثلج يهطل كالنثار فقم بنا نلهو بربة كرمة لم تمزج
وأحب شربها آخرون بقرب النار فرأى في ذلك اجتماع نار الراح ونار الحد ونار

الحشا في الصب. والصنوبرى يصيح بغلامه أن يجلب الكانون وأن يوقد النار ، وكذلك فعل كشاجم . وشربها بعضهم على الرياحين في شباب النهار واستمع إلى غناء الطير والنسيم يهب والشمس كدينار مجلو . وشربها غيره في الليل والليل لم ينتبه كأنه سكران يغط في نومه ؛ والليل كشعر الحسنة والحمر كخديها والشارب من ذلك في ليلين : شعر الحسنة والدجى ، وفي صبحين : كأسها ووجهها .
وهكذا نرى أن الشعراء اختلفوا في وقت شربها ، ولم يختلفوا في أثرها وفي فائدتها ، واتفقوا على أن يكون خلال الشرب عيد الطبيعة ، يمتزج الغناء بالرقص . والجو والشمس والسحاب والمطر كأنها تشترك في جلاء العيد وفي زينة المجلس !

السقاة ومجالس الشرب

وأما الساقى فيجب أن يكون عند أبي نواس مستعيراً خلق جارية ، فالدر مضحكه والقوس حاجبه والسهم عيناه والأشجار أرماع ، وفي رأى غيره يكون أحور قد تخضبت يده من الكأس وماس بأعطافه كالخيزان ، وعند ذاك يسقى بعينه ويديه . وابن المعتز يشرب من كف شادن يشكو لحظه السقام ، فكأن السلاف من ماء خده وكأن العنقود يقطف من شعره الجعد ؛ والبحترى يعتصر الحمر كذلك من خد ساقيه الشادن . وابن المعتز يصف السقاة وصفاً طريفاً جميلاً حين يقول :

وكان السقاة بين الندامى ألفات من السطور قيام

وأما الصنوبرى فيريد ساقيه لطيف المنطق ثقيل المؤزر مرتج الكفل غنج العين ، من نسل الدهاقين في الفرس ، فله عز السلاطين وللشاعر حين ذاك ذل المساكين ! فهو يتحكم في الشاعر كأنه يسحره أو يرقيه .

فالساقى عندهم محبوب معشوق له جمال وقتنة وسحر يتغزلون به ويجدون

عنده لذتهم وهناعتهم . وفي القرن الثالث استحب كثير من الشعراء أن يكون ساقيه ملتصقاً بعقرب صدغه . ولن نعرض لأوصاف الغلمان والسقا فهى كثيرة تجدها فى كتب الأدب ، ذكرنا منها فى كتاب الغزل ما سمحت به الصفحات هناك ، وصورنا ما كان الغزلون يستحبون من هؤلاء الغلمان .

ويسمى الشعراء إلى أن يكون جلاسهم وندمانهم فى طيب الخلق والخلق ولا تطيب الراح عندهم إلا بطيب العصاة كلها لئلا يحفظوا على السكران زلته ، وهم يحبون أن يجتمع الشرب والطرب فتعمل المزاير والنايات والعيان وتجول القينات وتصول ، كما قال أحدهم فى وصف ذلك :

ورنت على النايات أوتار قينه تشوق فتياناً إلى فتيات !

ويجب أن تكون القينة مشرقة الوجه معشوقة الألفاظ والغنج ، تعزف على الآلات وتطرب الأسماع ، فتدغدغ العود وتعرك أذنه . وقد وصف الشعراء فى مجالس الشرب المغنين والمغنيات ، فأبدع ابن الرومى فى وصف ذلك وخاصة فيما كان لوصف وحيد المغنية ، إذ رسم صوته وهدهوها فقال :

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشى وفيه حلى من النغم مصوغ يخال فيه القصيد

واستطرد الشعراء من ذلك إلى وصف آلات الطرب كالنأى والعود ، كما

فعل الواواء الدمشقي وكشاجم والصنوبرى والسرى الرفاء .

وإذا كانت الخمر معتقة والأبريق جميلاً ، والوقت مواتياً والساقى فاتناً ، وسار الطرب وتحركت الموسيقى فأن ديبب الخمر فى العظام يسرى كأنه النعاس قد أخذ بالمفاصل ، فهو يشرب الخمر ولكنها تشرب عقله خبلاً ، ويسلم روحه للراح ويميل رأسه على الكأس ويتلغم اللسان وتقول الجوارى إنه رجل من الأحرار صرخته الشفاه بالكأس والطاس . ويرى السكران فى الناس سقا وفى الأشياء كئوساً كما قال أبو نواس ، ومع ذلك يستزيدون منها ، ويستشفون

بها ، ويجدون بها الدواء لكل داء ؛ ويقول الحسين بن الضحاك :

أعود إليها وموتى بها كما تخرج الحرب أبطاها

وهكذا رأينا أن العباسيين شربوا كما شرب الجاهليون وكما شرب من قبلهم من أمم خلال القرون ، حتى قيل إن إبليس عصر الخمر لقابيل وأولاده ! ونقل كذلك أن آدم أول من غرس الكرم ، ونسجت كتب الأدب حول ذلك أسطورة تقول إن الخمر ولدت معها الخيلاء والزهو والمرح والرقص والعريضة ثم الانعقاص ، وذلك منذ الأبد حتى اليوم ، والشعراء رافقوا الأسطورة فكانوا ضحايا اللهب وشهود المعركة ؛ كما كان اليونان قبلهم والفرس ، ولكنهم لم يصنعوا للخمر آلهة كما فعل أولئك ، وإنما اكتفوا بصحبتها وحبها على الزمان ، فرسموها كما رسموا الحبيب والمعشوق ، وخلفوا فيها صوراً خالدة تفوق ما كان للشعر الغربي في رسمها ووصفها .

الفصل التاسع

العصر العباسي

وصف المعارك والحروب

أبو تمام — البحترى — المتنبي — أبو فراس — الشريف الرضى

قامت الحروب في عهد بني أمية ووصفها الشعراء فكانوا إلى الفخر بالنصر أقرب من وصف المعركة نفسها ، وتناولوا إلى ذلك بالهجاء خصوصهم . وثارت حروب الخوارج فرسمها الشعراء كذلك وعرضوا للفروسية والبسالة والفتك والتفاني فجعلوا الثورة دينية وجعلوا المثل العليا رائدها . ونهض الشيعة في وصف نضالهم بالدمع والحزن وكان ذلك دينياً أيضاً . وابن قيس الرقيات وصف قتال الزبيريين وشارك كعب الأشقرى في الفتوح وحمل قسماً من القتال فشهد حروب الأزارقة وصورها فأبدع فيها ، ولكن هذا الشعر كله كان شبيهاً بحماسة الجاهلية ممزوجاً بفكرة الدين والعقيدة والدفاع عن المبدأ .

ولما انهزم بنو أمية أمام جيوش الدولة العباسية هزّت الانتصارات الجديدة شعراء العصر فوصفوا النصر والهزيمة وأكثروا من القول فيها ، وأكثر الذين فخروا بذلك هو ابن المعتز فقد أشاد بالحرب ورسمها وتهكم بالعلويين .

وقامت كذلك حروب داخلية في العراق بين قواد الترك ، وخرج كثير من الأمراء على الحكم فنشبت الحروب بين بغداد وبينهم ، واستعرت ثورات القرامطة والزنج ، وشبّت نيران العداوة بين الشيعة والسنة . ونشأ حول ذلك كله

شعر كثير رسم الخيل والسلاح وخراب المدن ؛ حتى إن ديوان ابن نباتة السعدي غصّ بكثير من صور الحروب .

ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمداني وكثير من شعراء سيف الدولة ، فوصفوا ما قام عند الثغور أو ما وراء الثغور والتخوم حتى خرشنة أو على مقربة من القسطنطينية . وكان من هذا كله صفحات وافرة في وصف الحرب ، لو جمعت لكانت ملحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة في وصف حروبها كاليونان والفرس والهند .

وقد وصف بشار بن برد معركة أثار غبارها وسيوفها حتى خيل إليه أنها نجوم تساقط في الليل . وأبو تمام على رأس الشعراء الذين وصفوا حروب الروم والعرب ، فاشترك فيها بعاطفته وتشفى من العدو وفرح لنكبته ، ورسم دياره وقد أصبحت طعمة للنيران يتراقص اللهب في أرجائها ، فيغنى عن نور الشمس في سماءها ، ووصف الفرسان قتلى وجرحى والنساء سبايا للجيش المظفر :

لم تشرق الشمس منهم يوم ذاك على
باكٍ بأهل ولم تغرب على عزبٍ
والبحترى شارك في ذلك فوصف الدروع في الحرب ولكنه لم يخرج على
أوصاف الجاهليين ؛ ورسم الأسنة والرماح تسيل في البيداء مسيل السراب
أو كأنها خيال كواكب في الماء ، وأبدع في تصوير المعركة كما رآها منحوتة
في إيوان كسرى ، فأرانا الفارس يشيح فيهوى برمحه ، أو يلح خصمه بترسه ،
وعرض المنايا موائل في الحرب تكشر عن أنيابها لاقتناص الفوارس ، وأنو شروان
يسوق الكتائب تحت اللواء .

والمتنبي وصف معارك العرب والروم فرسم العدو يسبح في نجيع من الدم ،
وكان السحائب تمطر عليه الحديد ، والمنازل تضطرم فيها النيران ، والقنا تقرر
القنا ، وموج المنايا حول الفرسان متلاطم ، ثم يصور القتلى من الروم مخاطباً
سيف الدولة في معركة الأحيدب :

نثرهمُ فوق «الأُحْيَدِب» كَلَّه كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهم^(١)
 تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى وقد كثرَتْ حول الوكور المطاعم^(٢)
 تظن فراخ الفتح أنك زرتها بأماتها وهى العتاق الصلادم^(٣)
 إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى فى الصعيد الأراقم^(٤)
 وقد انتثر القتلى فى كل زاوية كما تنثر الدراهم حول العروس ، وتوزعت
 جشهم فى كل مكان فتجمعت النسور حولها تأكل وتنعم ، والخيول تبلغ
 بالعرب أعلى الذرى كأنها الحيات تزحف ببطونها فوق الصخور . ورسم الدروع
 تكسو الفارس والخيول ، فقال لأنهم يحرون الحديد فكأن جيادهم لا تظهر
 قوائمها فى المعركة لكثرة الحديد ، ومع ذلك قتلوا وهلكوا . وأبرع صورة فى
 بطولة القائد حين وقف يستعرض الأعداء جرحى منهزمين ، ووجهه ضاحك
 باسم بالنصر ، وهو أقرب ما يكون من مواقف الخطر كأنه فى جفن الموت ،
 والردى نائم غافل عنه . وهذه الصورة تقف للشعر العالمى وتصلح للقواد جميعاً
 من عرب وغربيين حين ينتصرون كسيف الدولة .

وأبو فراس الحمدانى وصف هذه الحروب ضد الروم ، وصوّر انكسار
 العدو وهرب الأبطال والملوك والقواد ووقوع نساء الروم سبايا فى أيدي العرب ،
 وصوّر المعاقلة تخرب سجداً أمام العرب وشبه الأسرى والقيود تضجّ فى أيديهم
 وأرجلهم بغناء الغوانى من غير مزاخر ، ووصف النصر فقال :
 وأوطأ حصنى « ورتنيس » خيوله وقبلهم لم يقرع النجم حافر
 فجعل حوافر الخيل تقرع النجوم حين بلغت الذرى فى الجبال لتصل

(١) الأحيديب : جبل الحدث .

(٢) الوكور : ج وكر الطائر وهو موضع مبيته .

(٣) الفتح : ج فتحاء من العقبان وهى اللينة الجناح - العتاق : كرام الخيل - الصلادم :

الشداد .

(٤) الصعيد : وجه الأرض - الأراقم ج أرقم وهو الحية فيها سواد وبياض .

إلى حصنيّ ورتينيس عند الروم ؛ وهذه صورة أخرى تقف لصورة المتنبّي في زحف العرب إلى الأعالي والذرى بخيوطهم . وأما الصور التي رسمها الشاعران لنصر سيف الدولة في غزواته ضد القبائل فكثيرة لا تحصى .

والشريف الرضى أكثر من وصف الحروب والخيل والدروع السابعة ، وخصّ شعره بالماضي التاريخي كما فعل الصنوبري وكشاجم ، فرسم حروب العلويين وامتلاّت نفسه بالحزن وخاصة في مقتل الحسين ، وصوّر الغبار والرماح والانتقام والتشفّي .

ولعلنا لم نختّر للمعارك شعراء كثيرين لأننا رأينا أن هؤلاء آثروا المجالس الناعمة والزهر والروض والماء والغناء والشراب ، وابتعدوا عن غبار المعركة وضجيج السلاح وقاني الدماء ، أو لأن الشعراء عاشوا أكثر الوقت في معزل عن السياسة والقيادة في الحرب والسلام .

الفصل العاشر

الوصف في الأندلس

ابن شهيد — ابن هاني — ابن زيدون — ابن حمديس — ابن خفاجة

انتقل العرب إلى الأندلس فوجدوا في القطر الحديد طبيعة مشرقة جميلة ، تشبه القطر الذي قدموا منه في اعتدال الهواء وطيب الإقليم ، فقد قال القدماء إن الأندلس كالشام في هوائها واليمن في اعتدالها ، فعاشوا فيه كما عاشوا في بلادهم الأولى ؛ وكان يذكّرهم بأوطانهم فيملكهم الشوق والحنين ، ولذلك كثرت الشكوى أول الأمر عند شعرائهم ، فوصفوا الفراق والجوى ، وظلوا كذلك حتى كان القرن الخامس الهجري فضعف هذا الشعور ببعض الشيء ، وأصبح الشعراء يتكلمون باسم البيئة والجو ، فنظروا نظرة جديدة مختلفة إلى طبيعة البلاد الأندلسية ؛ ولذلك كانوا فئتين فئة تعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ ، وفئة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد وسنعرض هنا أهم أعلامها .

وقد عاشت الفئة الأولى مع المشرقيين ، فجعلت في شعرها غريب اللفظ وقديم الصور وجمعت من أشعار الجاهليين كامرئ القيس وزهير وعنتره معانيها وأوصافها ؛ وأحسن من يمثل هذه الفئة هو ابن شهيد ، فقد وصف البادية والأطلال والخمر والنجوم والليل ، ثم رسم الورد كالحدود حين تخجل والشقيق تشكو صفحاته من لطم اللاطم ، فأتخذ صوراً من العباسيين فيها البرق يضحك والثريا تمايل أيديها بخواتم مذهبة ، والشمس تنظر بعين رمداء ليس فيها قذى .

ولعله أنقن فنون البلاغة فسار في شعابها ومسالكها كما قال فيه الفتح بن خاقان ،
وبذلك أعجب المشرقين إذ قلدهم وجارهم .

وابن هاني وجد كذلك مثله العليا عند الجاهليين والأمويين وبعض المحدثين
كأبي تمام وأبي نواس والمتنبى ، ولذلك قرنوه بمتنبى المشرق ، وكثير من شعره
يقع في البادية والصحراء ، ويصور الظن والأطلال والآل ، وبعضه يلتم بالبرق
وغناء الحمائم والمدامة ، على أساليب المشرقين ، فيسقى السلافة معتقة كلون
الجلنار ، ويركض نجم الليل كأنّ الليل يطلبه بثأر ، ويرسم الورد والزرجس
في صفرة وحمرة كما يرسمها العباسيون ، وتجد عنده رسوماً للسها وبنات نغش .

هذه هي الصورة التي عاشت قبل القرن الخامس الهجريّ ، فلما كان
هذا القرن اكتملت الحضارة في الأندلس وانقطعت صلة الشعب بالبداوة
وبيئتها ، فعاشوا في القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض
يتراقص الزهر والنور لأعينهم وتداعب الموسيقى آذانهم ، فكأنهم في قطر غربيّ
بعيد كل البعد عن المشرق في طريقة العيش وفي أسلوب النظر إلى الطبيعة .

وقد كانت تهبّ عليهم نسائم العصر الحمداني وما كان لشعرائه من
تجديد ، فقاموا لوصف بلادهم ومدنهم فتعصبوا لها وغدا كلّ من الشعراء
يتغنى ببلده أو واديه ، فابن زيدون راح يشيد بقرطبة ، وابن سفر المريني
بأشبيلية ، وترنم غيرهما ببلنسية ، حتى كان في وصف المدن والرروع كتاب
ضخم يغصّ بالشعر ، وكتاب نفح الطيب للمقرئ خير شاهد على هذا .

ونستطيع أن نقرأ هذا الشعر الذي يمثل وصف الأنهار والبساتين والغدران
والمدن ، وأن نرجع إلى هذه القصائد التي وصفوا بها البحر ، فقد
فطن الأندلسيون به وهاموا بحبه وركبوه ، وخلقوا فيه شعراً كثيراً يرسم الأساطيل
والسفن ، فاخترعوا معاني كثيرة في هذه الأوصاف ، ولكنك تقع بينها على
بعض معاني العباسيين مما لم يكن منه بد .

وابن زيدون وصف الطبيعة كذلك فأعارها حبه لولادة وحسّه في القرب منها أو الشوق إليها ، فخطب الريح والسحب والزهر والمواطن والمرايع ، ورجاها أن تنقل إلى حسنائه آية حبه ورسالة هواه ، وهو في هذه الأوصاف شبيه بالرومانتيكيين الذين يرون في الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم ، ويجدون في النهر والجبل والبحيرة والشجر شواهد على حبه تعطف على وجدهم وتبكي لأساهم ، فكلّ ما في الكون يحسُّ بحبهم ويشهد على آلامهم وأحزانهم ، فكأن الدنيا قد لبست لهم ثياب الحداد واكتست بالحزن . وهو على هذه الأوصاف أخذ من بعض معاني المشرقيين وتعلّق بصور البحترى فلقب ببحترى المغرب :

وابن حمديس ولد في صقلية ، وهي فاتنة ، وانتقل إلى الأندلس وأفريقية فاتصل بالقفار والصحارى فوقع حيناً على معاني القدماء من وصف الأطلال والديار وأثار الأحبة ، وسخر منها حيناً آخر كما فعل أبو نواس ، وتطرق إلى أوصاف البرق والصيد والفرس ، فلاذ بأسباب المشرقيين وتعلّق بنجد وغيرها ، وهتف كابن الدمينه ووصف الخمر كأبي نواس ، فسكر للغمام والطيور والشروق والغروب والنسيم الرقيق والسحب المظلمة ورسم الغصن بالتشبي سكران بالندى والشمس تجرى كالذهب ، وذكر غرة الصبح وظلل الحمى . ولكنه على هذا التقليد كان يرمى إلى معان طريفة يحاول أن يشق طريقه بها إلى الجديدي فيقول :

وراءك يا بحر لى جنّة لبست النعيم بهـ لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحاً تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقاً لى أن أعانق فيها ذكـاء
وهى أبيات جميلة تبين عن وصف جديد للطبيعة ومعان مستحدثة ، فهو يتمنى أن يُعطى المنى ليركب الهلال كزورق فيبلغ الربع .

وابن خفاجة ، عاش للفنّ ، وابتعد عن السياسة ، وكان سعيداً بمقامه

وديّاره يفضل الأندلس على الدنيا كلها ، ويرى فيها جنة الخلد ، ولو خير
بلداً لاختارها ، فأقبل على الرياض واتصل بالبساتين وتعلق بمباهج الطبيعة
فرآها كعروس ، ووصفها في صور جميلة وتعابير رقيقة تدل على تجديد في
اللفظ والمعنى قال :

في أبطح رضعتْ ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودرهم النوار
فالأقاحي لها ثغور ترضع أخلاف الغمام ، ويد الصبا نثرت الندى كالدرر
والنوار كالدرهم ، وهو يساجل الغمام ويطارح الحمام ويناجي الديار ، وقد
عاثت فيها الطي وحيا البلى محاسنها ، وصور الخمر وشربها من كف أحوى
أحور ، فشرب معه الثرى وتغنى الخزار وصفق الماء ، وقد فعل شاعرنا كما فعل
العباسيون في اختيار الغيم والثلج والمطر لأوقات شربه ، فوصف الشمس سقيمة
صفراء واستمع إلى لحون الطرب والمغنين وغناء الطير وحفيف الشجر وتمایل
النور ، ونظر إلى الأغصان تمایل من طرب ، وقد افتر ثغر الهلال عن سرور .
وصورة الفرس عند ابن خفاجة تستعير من الروض كذلك فتجعل خده
من الجمانر وأذنه من ورق الآس ، ورسم الليل كزنجي في سواده والنجم كدينار ،
وصورة الذئب في ديوانه تستعير من النجوم والكواكب قسماتها وألوانها ، وكذلك
وصف الطير والكلب ، فهو بستاني يعيش بين الشجر والزهر فيغمس ريشته
في ألوانها ثم يشبه كل ما يرى بها .

ووصف ابن خفاجة ما وصفه العباسيون من أشخاص وأشياء ، وزاد
فرسم صورة للأحبد تختلف عن صورة ابن الرومي . ووصف الأسد والنارنج
والنار ، والأرنب والشراب ، واستعمل كزملائه صور المشرقيين حيناً وابتكر
أحياناً ، فهو يصف النهر ويبدع في تجديده حين يقول :

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجرّ سماء
 قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
 وغدت تحف به الغصون كأنها هذب يحف بمقلاة زرقاء
 فلماء أشهى من لمى الحسداء ، وتعطف النهر كالسوار ، ورقته كقرص
 من فضة في بردة خضراء ، والغصون تحف به كما تحيط الهدب بالمقلة
 الزرقاء ، وهذه في جملتها أوصاف طرقها العباسيون ، ولكن تجديده كان في
 عرض الصور بالفاظ جديدة واستعارات تصويرية فيها فتنة وسحر تشبه الأرض
 التي عاش عليها ، فهو جنّان قضى حياته في جنة الأندلس وخرج في أوصافها
 بصور جنائنية لا تجددها عند غيره .

وهكذا رأينا أن الشعراء في الأندلس أفاقوا في القرن الخامس الهجري
 على صيحة التجديد في التعبير والتصوير ، ولكن الزمن لم يتح للعرب أن يسيروا
 طويلاً في الطريق الجديدة فقد أخرجهم الأسبانيون من هذا الفردوس ، وقد كان
 أمل القومية العربية وأمل الوصف في الأدب العربيّ ، فخبأ النور الذي سطع
 خلال هذه القرون ، وجاءت عصور الانحطاط ، وبسط العثمانيون ظلهم
 الثقيل على الأدب العربيّ فنام نومة طويلة ، ولم توقظه إلا نفحة من ديار
 الغرب هزّت كيانه هذا في الشام ومصر ، فتحرك لإحياء القديم أولاً ثم نشط
 للإبداع والاختراع .

افصل الحادى عشر

الوصف فى العصر الحديث

شوقى - صبرى - مطران - حافظ - العقاد - على محمود طه -

على الجارم - أبو شبكة - الأخطل الصغير - خليل مردم بك

ظلت مصر تستمع إلى شعراء الشام والعراق والأندلس فتطرب ولكنها لا تشارك فى قول الشعر ، حتى كان القرن الرابع الهجرى فانبرى شعراؤها يقولون فى الوصف خلال ثلاثة قرون كما قال العباسيون ويرسمون الطبيعة قيعيدون إلى الأذهان صور أبى نواس وأبى تمام والبحتري وابن زيدون وابن المعتز . وهكذا لمعت فى مصر أسماء ابن النبيه وابن قلاقس وابن الساعاتى وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن مطروح ، وظهرت فى الأدب العربى أوصاف النيل والرياض حواه ، والسماء والأفلاك ، تستعير من أوصاف المحبوب فتنته وسخره على أساليب العباسيين .

فلما كان العصر الحديث هبت على النيل ريح الغرب وحملت كثيراً من المصريين إلى أوربة ، فسرى فى النفوس شعور جديد يدفع إلى حب الأدب العربى وإحيائه بل وتجديده ، لذلك حاول كثير من الشعراء فى مصر أن يقلدوا الغرب حيناً فى أسلوبه وأغراضه ، وقام أمامهم فريق كبير يجب أن يقلد العباسيين فى اللفظ والمعنى ، وكان من وراء هذين الفريقين فئة من الشعراء شقت طريقها إلى شىء من الحديد الطريف ، وتنسم اللبنانيون أريج هذا الشعر فحملوه إلى لبنان وإلى المهجر ، فكانت محاولات فى الوصف

والتصوير ، تجارى العصر الحاضر واختراعاته فى كثير من عناوين القصائد ، ولكنها لا تخرج عن المعانى المطروقة إلا فى الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

وقد حاول أحمد شوقى فى مصر أن يخص جانباً كبيراً من شعره بالأوصاف كالنخيل والبحر المتوسط والشرع ، فوقع على معانى القدماء ، ثم أراد أن يكتب فى الحيوان فجعل قصصه تقليداً للشاعر الفرنسى لافونتين ، لا تصويراً كما فعل الصنوبرى والسرى وكشاحم .

ولقد سعى إلى تصوير الحمر والرقص والربيع والمساجد والكنائس والقصور بعد أن رأى وسمع وسافر إلى باريس ومدريد ، ووقف فى غاب بولونيا وعلى قبر نابليون ومسجد قرطبة ، وضواحي جنيف وأطراف البوسفور ، وراح يرسم ما شاهد ، ولكنه لم يفعل شيئاً جديداً ، فلم يبتعد عن التقليد ولم يتخلص من معانى القدماء وتشبيهاهم وأوصافهم ؛ بل أضاف إليها عواطفه الشخصية وأحاسيس نفسه .

فلما تعرض للطيارين الفرنسيين ذكر سليمان وبساط الريح حين وصف الطائرة :

صهوة العزّ اعتلوا تحسبهم	جمع أملاك على الخيل تسامى
رفعوا لولها فاندفعت	هل رأيت الطير قد زفّ وحاماً (١)
شال بالأذنان كل ورمى	بجناحيه كما رعت النعما
ذهبت تسمى فكانت أعقباً	فنسوراً فصقوراً فحماماً
تنبرى فى زرقاة الأفق كما	سبّح الحوت بدأماء وعاماً (٢)

وهى صورة جاهلية فيها الطير والنعام والنسور والصقور والحمام والحوت ،

(١) زف الطائر : رمى بنفسه أو بسط جناحيه .

(٢) الدأماء : البحر .

قد اجتمعت لتعير الشاعر من رسومها ألواناً وأشكالاً لهذه الطائفة ، ولولا كلمة لولب وزرقة السماء لحسبنا أنها تجرى بين الحيوان على الأرض . والواقع أن الطائفة تشبه الطير أكثر ما تشبه وقد اخترعت تشبهاً بالطير ، ولكن الشاعر يستطيع أن يتخيل في رسمها أبعد من هذه الصور الحسية المادية الصرفة في القرن العشرين . ولعل عذره في ذلك أن أحداً من الشعراء لم يخص معممات هذا الوصف فكان الميدان بكراً . وشأنه في وصف الطائفة كشأنه في وصف السفن والسيارات وغيرها .

وإسماعيل صبرى وصف النيل والبرق والسحاب والدواة والشيب ، والثعلب والغراب ، ولكنه جعلها في رسوم العباسيين ، تأخذ من الحيوان والجنان [والأشجار ؛ فقد قال في البرق إن سنه عيون مراض أو مصابيح قبل الانطفاء أو سيوف تميل بأيدي الكهنة أو مواطئ الخيل على الصخور يتطاير منها اللظى . وخليل مطران ، رسم قلعة بعلبك مسقط رأسه ، فعرض للنحت والصور والجنان المعلقة في أسلوب بسيط سهل ، طريف . ووصف الأهرام فتعلق بالعبارة أكثر من الصورة ، وامتلاً ديوانه بأوصاف كثيرة في الورد والبنفسج والزنبقة ، فخلق في معان كثيرة لم نرها لغيره :

وأفانين من شقيق ومن فلّ
ومن مضعف ومن ريحان
كل ضرب شبيه سرب جميع
مفرد عن لداته في مكان
طال فيها تأملى وكأنى
كنت منها في روض عين حسان
وهكذا دفعه خياله لأن يشبه كل زهرة بحسنة فكانه في جمع منهن يتوحي
شبهاً لمعشوقته ، فإذا هي كما يقول في قصيدته تشبه الزنبق في طهرها ونقاها .

ووصف الشاعر سرباً من الغيد يصنعن حلوى العيد فيخرجن من كتل العجين بدائع بأيديهن ، وأناملهن مخضوبة بالدم لشدة حمتهن ، وزنودهن كالعاج معرقة بالزمرد ! .

وأتيح للشاعر أن يصور مشاهد من أرض الكنانة جميلة كمجنى القطن وصبيات
المزارع يخطرن فيها متغنيات هازجات ؛ وصور مشاهد تاريخية بارعة في قصيدته
الكبرى « نبرون » فرسم حريق روما وحال الشعب الرومانى . ووصف المدن
السورية واللبنانية في ديوانه مثل زحلة والمعلقة وطرابلس الشام وحلب وبكفيا
والخمشارة ، وصور المشاهد الجميلة فيها . فهو بحق شاعر الشام ومصر في ديوانه
حين نفهم من ذلك وصف ما في القطرين الشقيقتين من معالم تاريخية ومناظر
ساحرة .

ومطران وصف الطائفة مثل شوق ، ولكنه وصف النياق والجرد العتاق ،
وجعلها مزجاة بأجنحة غلاظ تزف زفيفاً ، وحين عرض للطيارين اللذين قتلا
عليها قال :

هبط النسр بفخره وما كان صيادهما غير القضاء

وأما حافظ إبراهيم فقد عرض للوصف في شعره ، فرسم حوادث الزلزال في
مسينا ووصف الشعب الإيطالى وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة
هائجة تغلى حقدًا ، والأرض تبغى والبحر يطغى والجبال ترجم وتنفذ بشواظ
من مارج ودخان ، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين
تزلزل الأرض زلزالها . وهذا التصوير بدیع يقول فيه :

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدًا عليها فتنة شق انشاقًا من كثرة الغليان

فقد وصف نكبة الطليان بالزلزال كما وصف مطران نكبة الطليان بحريق
رومة وجنون نبرون ، ولكن بأسلوب مختلف أخذ صورة من الشعر القديم
ومتانته من روعة اللغة التى نعرفها لحافظ .

ووصف حافظ سفينة في البحر رحل عليها إلى إيطاليا فصورها ترمى

في المياه بصدرها لا تبالى بالموج أو بالصخور، تعلو تارة وتهبط أخرى ، وشبهها بالسيل وبجواد يسعى إلى الطعان :

وعليها نفوسنا خائبرات جازعات كادت شعاعاً تطير
في ثنايا الأمواج والزبد المنـدوف لاحت أكفاننا والقبور
ثم قال إن نفوس الركب جازعة خائرة تطير شعاعاً من الرعب في قلب
الأمواج ، والزبد كالقطن المنـدوف كأنها أكفان تهبأ وقبور تفتح ، وهذه
معان جميلة تقلبت على لسان حافظ في أوصافه ، اعتمد فيها حيناً على القدماء
واخترع حيناً بلطف حيلته وجميل عـرضه . أما الخمر فقد عصرها من خد
النجم تارة ومن حدود الملاح أطواراً ، وذكر قدمها قبل نوح ، وتعلق بمعاني
أبي نواس وغيره من العباسيين ، فطلب من غلامه أن يسقيه حتى لا يطيق الكلام
إلا بهمس ؛ وساقه رشاً لطيف تنطق عيناه بالسحر ، وخمره حفظت في الصهاريج
منه بابل وأقامت في جوف الدنان المظلمة ، وهذه كلها معان عتيقة قتلتها
الشعراء ترديداً .

ووصف عباس محمود العقاد النيل ، والرياض ، والتلج ، والنار ،
والبدر ، والشتاء ، والعقاب ، والكروان ، والصحراء ، واتخذ أكثر شعره في
الوصف ، وحاول أن يقلد الغربيين وأن يبتعد عن الشعر المصري المعاصر ،
ولكنه وقع كثيراً في معاني القدماء ، قال يصف السيما :

بربك ماذا في ستائرک الطلس أشباح جن تلك تظهر للإنس؟
إذا لم تكن جنّاً فما لي عهدتها تفر فرار الجن من طلعة الشمس؟
فعاد في وصف العجائب إلى الجن كما عاد النابغة وغيره إليها حين وصفوا
القصور المدهشة والآثار العظيمة ، ورسم الستائر طلساً كذئب النابغة والبحترى
والفرزدق ؛ وله في صوت الكروان وعيشه صور جميلة حية لا تنسى .

وأما على محمود طه فقد وصف سفينة الجنـدول والحسناء التي لقيها عليها ،

فصوّر عاطفته وحنينه إلى مصر وأهلها كما صوّر شوق قصور الأندلس والحمراء ، فتحرّكت الأشواق وسكنت الألوان وخفيت الأشكال في كثير من صوره . وبعضها يحمل طابع الإبداع والتجديد ، ولو أن العمر امتد بالشاعر لأمد الوصف بكثير من روائعه .

وتعلّق بعض الشعراء في المهجر ولبنان ومصر بالوصف اللطيف ، كفوزي المعلوف وشفيق المعلوف والقروى فراحوا يمنحون الكلمات صوراً مجنحة - إذا صح التعبير - أو يكسبون الموصوفات من خيالهم أشكالاً تطير بالسامع إلى جوّ طريف وتنقله إلى حيث يريد الشاعر ، وقد رأينا بعض اللحن والأهازيج في ديوان علي الحارم حين يقول :

ومزامير أطلقت من فم السح	ر فادت لها رواسى الجبال
ورنت كل سرحة تسرق السّم	ع وتعطو بغصنها الميال ^(١)
وأهازيج ردّتها الأراهير	ر وغنى بها نسيم الشمال
ذهل الشعر فاستفاق غالفى	موكباً حفّ بالسنا والجلال

وهذه صور جميلة ، فالمزامير تغنى وتميد لها الجبال الراسية والشجر يسترق السمع ويتناول الغصن الميال ، والأغانى تردّها الأزاهير فتسرى مع النسيم ، وسحر الشعر بجمال الأنغام وذهل برائع الألحان ، ثم استيقظ فراحه موكب السنا والجلال .

وقد سار بعض شعرائنا على هذا النمط يعيرون اللفظ أجنحة من الوصف لعلها تكون لوحات رائعة التصوير والرسم ، تصف النفوس والقلوب والمشاعر ، وترسم الطبيعة . وإليك لوحة رسمها إلياس أبو شبكة للنجوم :

كأنّ النجوم الضئيلة في الأف	ق رشح خور على خابيه
كأنّ النجوم زفير خطايا	تصعّده ليلة زانيه

(١) السرحة : الشجرة - تعطو : ترفع رأسها وتتناول .

وقد شهدنا فيما تقدم وصف شعرائنا للنجوم ، ولكننا لم نعهد تشبيهها برشح
الحمور على خابية أو بزفير الخطايا من امرأة زانية . وما دمننا في رسم الطبيعة
فلنسمع إلى بشارة الخورى يصف جبل صنين بلبنان :

وأبو الرّبي صنيّ قام كشمعة بيضاء تمعن في السحاب وترتقي
يتوقّد النجم السنّ برأسها فترى بواذر دمعها المترقّق
وهكذا رسم الثلج فوق صنيّ كشمعة تناطح السحاب وفي رأسها نجم سنّ
يتوقّد فتسيل الشمعة أسى وتبكي دموعاً . ووصف الشاعر الأخطل خمره فأبدع
فيها حين قال :

يا ذابح العنقود خضّب كفه بدمائمه بوركت من سفّاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح !
أدب الشراب إذا المدامة عربدت في كأسها أن لا تكون الصاحى !

وطبعي أن نجد بوناً شاسعاً بين معانى أبي نواس ومعانى الأخطل الصغير
في لبنان ، فقد ضربت الأيام وتقاّبت على أدبنا مدارس ومذاهب أفاد منها
شعراؤنا المعاصرون ، فجعلوا ذبح العنقود والدماء تسيل منه والسفاح لعاصر
الخمر ، أما فراغ الأقداح فتثاؤب وملؤها عربدة ! وهذا جديد في الوصف ،
يدفعنا إلى الأمل بأن أدبنا يشدّ إلى آفاق جديدة .

وعكف كثير من الشعراء المعاصرين في مصر والشام على وصف الرقص
والمراقص ، فأبدع منهم فيها الشاعر خليل مردم بك حين صور الأجساد
متلاصقة حتى ما يخلص الماء من بينها من فرط اعتلاق ، وكأنّ الفتى يحمل
ثدي فتاته لشدة القرب حين الرقص . وعمد هذا الشاعر إلى المآذن والنيران
والتلوج والحبال والأنهار فجلا رسومها على شكل جديد فيه حنين وعاطفة ودقة
تصوير . وتبعه كثير من الشباب في محاولاته ، وستؤتي هذه الخطوات أكلها
إذا تعهدوا النقد وأخلص لها مؤرخو الأدب ؛ وهم سيضيفونها إلى ثروتنا القديمة

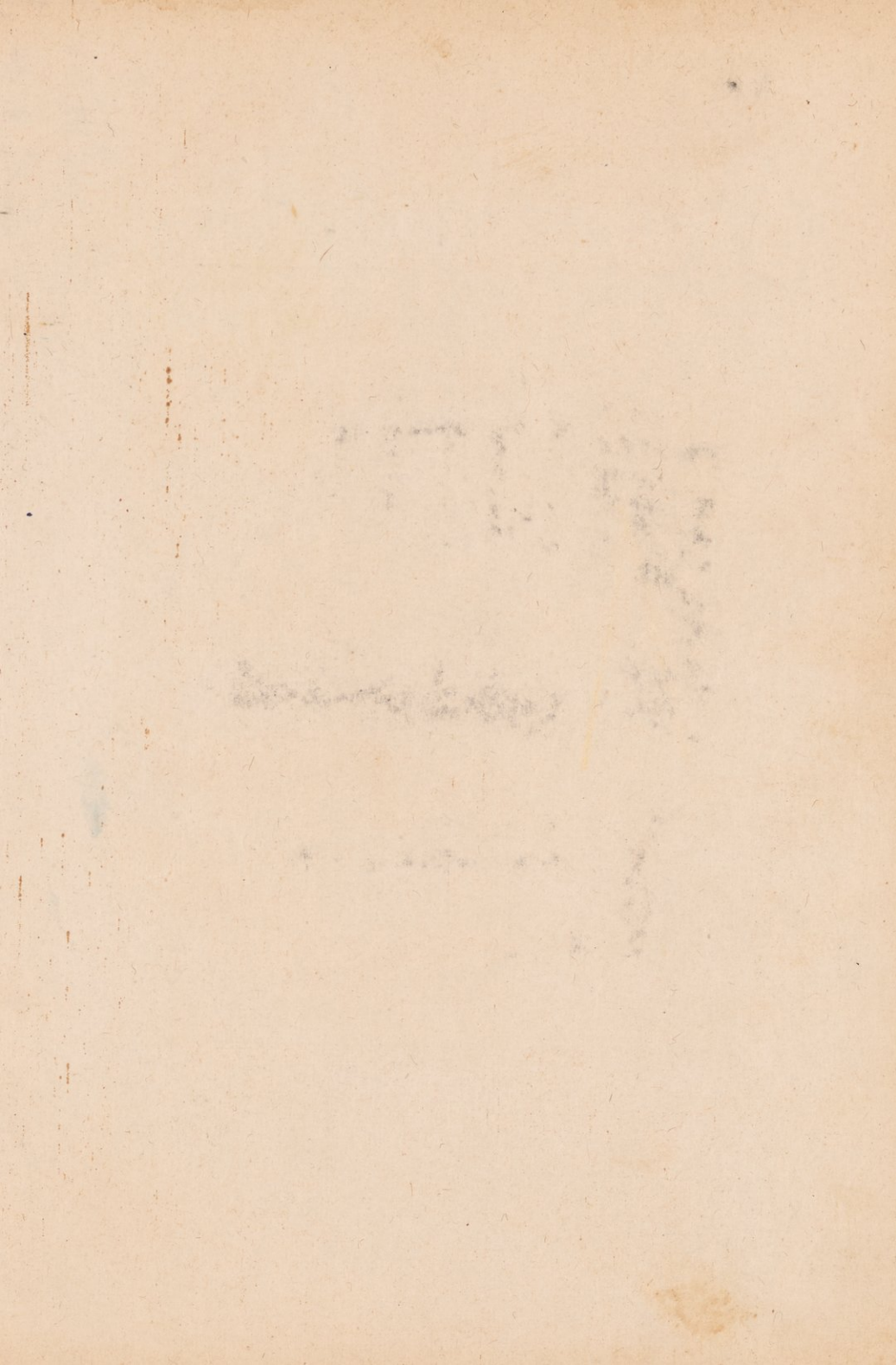
في الوصف خلال أربعة عشر قرناً من المشرق إلى الغرب ، لأنها ستكون متحف الوصف العربي .

وسيكون للوصف حينذاك صورة يخلق معها الشاعر بالألوان والأصباغ والظلال كما انعكست في نفسه من حزن أو فرح وحركة أو جمود ، وسيصبح للشعر العربي متحف جميل فيه الحيوان والإنسان والطبيعة الميته من قرية أو قصر أو كوخ أو بستان أو وجوه الناس ، أو مناظر الأسرة والبيت ومشاهد الأب والأم والأولاد ، وصور البؤس أو الفرح في المصانع والمعامل والشوارع والبيوت ، في المدينة والريف ، تنطق كلها بنفسية الشاعر وتعبر عن روحه ، فيـثـأثر بها القارئ ويندهب مع الشاعر إلى الأفق الذي كان يخلق فيه ويدرك أهدافه ومراميه ، ويبصر بعينه التي كان يرسم بها ، ويحس بروحه التي كان يخلق معها ، وهذا هو الفن الموفق ، والوصف المحوّد ، والخلود في الشعر .

فهرس

صفحة

٥	.	.	.	.	.	.	.	تمهيد .
٩	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الأول : وصف الحيوان في العصر الجاهلى
٢٩	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الثانى : وصف الطبيعة الميئة في العصر الجاهلى
٣٥	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الثالث : وصف الخمر والسقاة في العصر الجاهلى
٤١	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الرابع : وصف السلاح والحرب في العصر الجاهلى
٤٧	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الخامس : الوصف في العصر الأموى
٥٣	.	.	.	.	.	.	.	الفصل السادس : وصف الحيوان في العصر العباسى
٦٧	.	.	.	.	.	.	.	الفصل السابع : وصف الطبيعة الميئة في العصر العباسى
٨٥	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الثامن : وصف الخمر والسقاة في العصر العباسى
٩٣	.	.	.	.	.	.	.	الفصل التاسع : وصف المعارك والحروب في العصر العباسى
٩٧	.	.	.	.	.	.	.	الفصل العاشر : الوصف في الأندلس
١٠٣	.	.	.	.	.	.	.	الفصل الحادى عشر : الوصف في العصر الحديث



808.1:D12aA:c.1

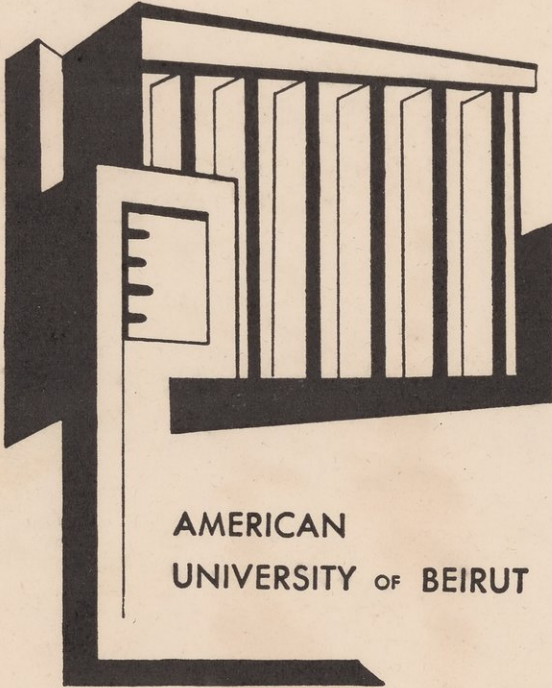
الدخان، سامي

الوصف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031764



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

808.1
D/2a A
C.1